# القـــتلة

**القتلة - مجموعة قصصية**

تأليف : أنطون هيكيش
ترجمة خالد البلتاجي
الغلاف : هانيبال – هيبو

الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠٠٩
رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٩٧٤٩
الترقيم الدولي: ISBN: 978-977-6299-18-4

**وكالة سفنكس**
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو إقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي.

ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2009

"The book was published with a financial support From SLOLIA, Center for Information on Literature in Bratslava, Slovak Republic."

## أنطون هيكيش

ولد أنتون هيكيش في ٢٣ فبراير عام ١٩٣٢ في مدينة "بانسكا شتيافنتسا". تخرج من كلية الإقتصاد في براتسلافا ثم عمل محررا أدبيا في الفترة من ١٩٦٢ - ١٩٦٩ في الإذاعة التشيكوسلوفاكية في براتسلافا. لم يتمكن في الفترة من ١٩٦٨ – ١٩٦٩ من نشر إنتاجه الأدبي لمواقفه السياسية. عمل سفيرا لبلاده في كندا في الفترة من ١٩٩٣-١٩٩٧.

بدأ هيكيش حياته الأدبية في ستينات القرن الماضي ويعتبر واحد من الكتاب المهتمين بقضايا الشباب. استخدم تناول في أولى أعماله موضوعات من الحياة اليومية وحاول تصوير أبطاله من خلال التركيز على العنصر الإنساني فيهم. كما سعى إلى تجديد الكتابة النثرية التقليدية عن طريق تداخل الأبعاد الزمنية وجعل الحوار أكثر ديناميكية.

كتب العديد من القصص والروايات من بينها: " الحلم يدخل المحطة" عام ١٩٦١، "خطوة إلى المجهول" ١٩٥٩، "ناديه" ١٩٦٤ ، "إلتقيتك" ١٩٦٣ (مجموعة قصصية) ، "عصر الأساتذة" ١٩٧٧ ، (رواية تاريخية)١٩٨٣.

من المجموعة القصصية "وحيد في مدن أجنبية" اخترنا قصة "القتلة" التي نشرها لأول مرة باللغة الألمانية عام ١٩٦٩ ولم تنشر باللغة السلوفاكية إلا عام ١٩٨٩

## المترجم

د. خالد البلتاجي من مواليد محافظة الغربية في جمهورية مصر العربية. نال درجة الدكتوراة من جامعة شارل ببراغ بالجمهورية التشيكية ، عمل أستاذا

للأدب العربي في جامعة براتسلاف بسلوفاكيا ويعمل حاليا أستاذ للغة التشيكية بجامعة عين شمس بالقاهرة. عمل مترجما معتمدا لدي السفارتين التشيكية والسلوفاكية بالقاهرة وترجم إلى اللغة العربية من الأدب التشيكي والسلوفاكي العديد من الأعمال كان آخرها رواية للأديب السلوفكي ميلو أوربان "خلف طاحونة الجبل" ورواية الأديب التشيكي ميلان كونديرا "الخلود" .

أنـــطون هــيكيش

# القـــــــتلة

ترجمة: خالد البلتاجي

وكالة سفنكس

# القــــــــــــتلة

**كنـت** مرهقا بعد سفر طويل وأردت أن أتجول في المقاهي لفترة، غير أن إيماءة من امرأة رفعت يدها من أحد أركان المقهى حالت دون ذلك.

نادت بصوت هادئ وهى تشير إلى المقعد الذي أمامي وقالت:

- إنها أنا ! أنا التى كتبت لك الرسالة.

لم تكن أجواء المقهى توحي بالمفاجآت، فلا تكاد تسمع صوت طَرقات. بدا كل شيء عادي في مدينة متطرفة شمال البلاد، كانت في وقت ما مركزا للحركة القومية، أما اليوم فقد حل محلها مصنع للآلات، يوفر للأهالي من القرى المجاورة فرص عمل، ومركز تأهيل ومحاولات لفتح أماكن لرقص التعري ومحل للعصائر وأحياء مليئة بورش السكة الحديد ذات ألسنة الهباب ومسرح هجره الممثلون. لكن جميع السكان يعيشون ويترددون على هذا المقهى.

كانت الرسالة التي أرسلتها لى هذه السيدة منذ مدة رسالة عادية، شأنها شأن رسائل كثيرة أتلقاها من السيدات. كانت بها أمور خاصة لا تفصح عنها السيدات بين الثلاثين والأربعين من عمرهن إلا في الخطابات أو في السرير. تعلمت أن أحترم مظاهر الخصوصية هذه. فالعمر يمر ولا يجب أن يرفض الإنسان مثل هذه المناسبات التي يتجاوب فيها مع الآخرين.

أكتب لك لأنني على قناعة بأن مشاعرنا تعزف على نفس الوتر... كتبك ومقالاتك ... هناك أناس نثق بهم كما أثق بك الآن... وأشعر بحاجة إلى ألتقي بك شخصيا. أنا لا أخجل ، اسمح لي أن أدخل في الموضوع مباشرة... أنا أعاني من مملكة الكلمات.

من النادر أن أتلقى مثل هذه الرسائل. تعودت أن أرد عليهم بطريقة طبيعية لائقة. ولم أتعجل اللقاء. فلا أرى سببا في أن أعرّض نفسي وغيري للإيذاء. لقد جئت إلى هذه المدينة فقط في مهمة رسمية. قمت بالاتصال بها:

- نعم يا سيدتي! أنا هنا في مدينتكم وسوف نرحل اليوم بعد الظهر . نعم ، يمكن أن نلتقي في المقهى...

ولهذا السبب نجلس في المقهى المزينة حوائطها بأشكال هندسية صفراء وبيضاء ، محاطين بزبائن المقهى الذين يشربون البيرة. أشرب عصيرا وأتابع سيدة تجلس أمامي وتشرب على مضض هى الأخرى العصير من باب اللياقة.

ليست هناك مفاجآت. المرأة تبدو مثل الخطاب الذي أرسلته. حريصة في تصرفاتها وتفكر في نفسها أكثر من أي شيء كما هى العادة. ينطلق من عينيها خوف واضح ، هكذا ببساطة يمكن أن أصف الأمر. أربكني أنها لا تتظاهر بالهدوء واللامبالاة كغيرها من السيدات

المحنكات .. تبدو عليها بوضوح مظاهر عدم الثقة. وليس هذا نابعا من مظهرها الغير مهندم.

أرادَت أن تسمع رأي "خبير الكلمة" مثلي (لم تستطع مقاومة الابتسامة وهى تقول ذلك) ، أرادَت أن تعرف شيئا مهما عن الكلمة. نعم ، عن الكلمة! أرادت أن تفصح عن شيء بين يدىّ خبير. رحت أترقب متى ستخرج من حقيبتها مجموعة أشعار كتبتها بخط أنيق.

- هل للكلمة أن تقتل؟

راعني السؤال. إلى أين تأخذني هذه المرأة البالغة من العمر خمسة وثلاثون عاما؟ للحظة اعتقدت أنه بحر من مادة لدنه يغوص فيه الإنسان ويلتصق به كل شيء .. على أصابعه ..وعقله ويدخل في شعره حتى يستحيل تصفيفه.

شربت العصير ثم أنحّت نظارتي الشمسية جانبا على مفرش الطاولة. وبسرعة أشعلت لها السيجارة. يجب أن أصرف بسرعة عن ذهنها هذا الموضوع الكئيب والسؤال العجيب.

تناولت نفسا من السيجارة ثم بدأت تتكلم. شعرت بأنني أخيرا نجوت. كانت قصتها بسيطة. الأمر يتعلق فقط بنوع الكلمات التي نستخدمها. قصة بسيطة بالنسبة لأهل وسط أوروبا. أختها الكبيرة متزوجة. يبلغ زوجها من العمر ثمانية وأربعون عاما. كان يعمل حتى وقت قريب في مصنع للآلات بالمنطقة. في الخريف اقتادوه للحبس الاحتياطي. تأكد أنه كان في وقت ما عضوا في أمن الدولة وفي عام

١٩٥٠. قتل بالتعاون مع زملائه ثلاثة مواطنين وهم. **د. أ.ف** ، **.ي.أ** والنقيب **س.ل.** لم تكن زوجته حتى هذه اللحظة تعرف شيئا عن هذا. قصة عادية ، أليس كذلك؟

- زوج أختي سفاح!

وضَعْتُ يدي على نظارتي ورحت أفكر مليا كيف أخرج من هذا الفخ الذي تريد أن تجرني إليه هذه المرأة. لم تمهلني المرأة، فأخرجت من حقيبتها مقصوصة من جريدة تقول:" تشهد عملية الرباعية ولعدة أسابيع اهتماما متزايدا من قبل الجرائد الغير خاضعة للرقابة.".

أومأت قائلا:

- أنا أفهم ما ترمين إليه. تريدين أن تقولي بأنك تشككين في الدوافع. أم أنك تشيرين إلى المشكلة التي تسببت فيها الجرائد وهي: من المذنب؟ أم أن الأمر يتعلق بالمشاكل النفسية التي تتعرض لها أختك؟ نعم، نعم لقد تذكرت. المدعو – ترددت قليلا – زوج أختك والحرس التابعين له حصلوا على أمر من رئيس المحكمة بأن يتم ترحيل المساجين الثلاث من العاصمة وفي الطريق تم تصفيتهم جسديا. وادعوا رغم ذلك – مددت يدي إلى إحدى الورقات ورحت أقرأ... أن السجين د.أ ف. حاول الهرب أثناء السفر وحرض باقي المساجين على الهرب. وكان عليه أن يستخدم السلاح ضد هؤلاء الثلاثة في المكان المناسب طبقا للتعليمات... أحد موظفي أمن الدولة...

قاطعتني قائلة

- كان هو ، زوج أختي ، هو بنفسه.
- لكن زوج أختك كان يشكك في صحة الأمر الصادر. ووصل إلى الوزير عبر شبكة من الرؤساء. فقال له الوزير: ألست عضو في الحزب؟ ألم يصدر لك الأمر؟ صدر بالطبع. أليس عندك رؤساء؟ عندك طبعا. إذن لماذا جئت إلى هنا؟
- وهكذا تعرض هؤلاء الثلاثة في الغابة بالفعل لـ...

ثم صمتت

- إذا كنت تريدين أن تسمعي مني يا سيدتي أنها لم تكن جريمة ، فلا. إن أكبر المجرمين هو من أصدر أمر كهذا ، ليس عندي ما تبحثين عنه. سيدتي! إن العالم قد حسم القضية بالكامل قبل ربع قرن من الناحية السياسية والأخلاقية والقانونية. إن تنفيذ الأوامر الغير إنسانية لا تلزم المرؤوسين. ألم تشاهدين فيلم "محاكمة نورمبرج"؟ عرضوه منذ فترة في التلفزيون...

وهنا قامت السيدة من مقعدها وراحت تنظر إليّ في خوف ثم صرخت صرخة مكتومة ، حتى اضطرت أن أقف وأمسكها بيدي، وأمرر ذراعي الآخر على شعرها، غير أنني كنت أدفعها للجلوس على مقعد المقهى.

- بهدوء ، بهدوء من فضلك يا سيدتي...

راح الناس من حولنا ينظرون إلينا.

- أنا لست بهذا الغباء، أتفهمني؟ طُظّ في أسبابك السياسية ومحاكمة نورمبرج! أنا لست غبية، أتفهم! أنت مغرور، مغرور...

بالفعل كانت تبحث عن تعبير مناسب لكي تشعرني بالإهانة لكن بطريقة مهذبة.

- لكن محاكمة رباعية أمن الدولة قد توقفت منذ فترة طويلة، لماذا أنت منزعجة إذن؟

جلست وراحت تنظر أمامها بلا هدف.

- أطراف في هذه القضية كانوا من كبار رجال الدولة وبعضهم مازال في مراكز مرموقة حتى الآن...

أومأت بالموافقة

- هذا صحيح، والسبب بسيط. ما يزعجني هو أمر آخر، عذرا، أيضايقك دخان السيجارة؟... كان الأمر وقتها مختلفا. ألا تفهم الأمر باعتبارك أديب؟

راحت تحدثني عن زوج أختها وعن سيرته المعروفة في بلدتهم وعن طفولته في القرية وكيف كان يقوم بمهام الكاهن. تكلمت عن الشكوك والأزمة والبطالة وكيف انضم إلى الشيوعيين وماذا كانت تعني له الاشتراكية. إنسان رائع ومستقيم وأصيل، ذو مبادئ ورثها عن أمه. الحرب والنضال ومجموعة الموالين.

كيف أنه آمن في الكفاح من أجل الإنسانية والسلام بالمبادئ وبالقادة الذين علموه كيف يفهم الأمور. بعد أن وضعت الحرب أوزارها لم يتعجل الوظيفة. ظل موظفا صغيرا في وزارة الداخلية. عرف الأعداء في الحروب، عرف أنه لا مكان للتأسي، لكنه لم يكن منفذا أعمى للأوامر، هذا هراء يا سيدي! من السهل وصف الأمور بهذا البساطة من خلال الصحافة والإذاعة. إنه "آمَن" وأنجز الأمور بمفرده وبقناعة شخصية. كان يرى عدوه في الحرب بوضوح. كان يراه حتى بعد الثورة وبعد انتقال السلطة. الكلمات الكبيرة جعلته يضحي بحياته. من المسئول عن محتوى تلك الكلمات؟... واليوم يحاكموه... قل لي أن الجهل بالقانون ليس عذرا... غير أنه في ذلك الوقت كان هناك، يحكم باسم البشرية والاشتراكية، آه ، أنت تعرف أن كل الأعمال كانت تتم باسم الشعب. إنهم يضعون سائق عربة السباق في سيارة جديدة لم تستعمل من قبل ويعتبرون موته تضحية من تضحيات التقدم التي لا مفر منها !.

كل يوم أجلس مع أختى كل مساء في غرفة مظلمة ونناقش هذه الأمور العبثية بما يأتينا به الظلام. تبحث في أعضاء السلسلة، من رئيس إلى رئيس آخر، نبحث عن الأوامر ومن أصدرها. تختلط علينا الأمور. لن نجد المذنب يا أستاذ الكلمة العزيز! .. يتملكني الفزع من "مملكة الكلمة". كل شيء يبدأ بالكلمات،

أتفهمني يا سيدي؟ أنت يا من يتاجر بالكلمة، أليست تجارة مربحة؟ سلطة الكلمة... وكأن الكلمات تتطاير في الفضاء. أحيانا أتخيل أن الكلمات ستبقى معلقة في الهواء تبحث عمن تذهب إليه...

عقبت عليها بطريقة شعرية قائلا:

- تقف علينا الكلمات كما تقف الفراشة على الزهور.

وعللت قولي هذا بأن هذه الصورة وردت على ذهني لكنها واصلت حديثها.

أكدت لي أنها ليست غبية وأنها لا تريد أن تسمع هذا الهراء الأدبي.فهى تعرف شيئا عن علم اللغة وعلم المعاني وذكرت كتاب **"ماكس بنسي"**. يعذبها لغز الكلمات ولا تعرف كيف تقاومها. لا تعرف كيف تمنعها من تدمير أناس ناجحة في حياتها؟ زوج أختها كان يحب أولاده، لا يشرب الخمور، ومنذ فترة قليلة وافق على إضراب للطلبة، فعلا، صدقني! إنه إنسان تقدمي. لكن كيف أن الكلمات ملكت عليه قلبه وأوصلته إلى الدمار؟

- أتعرف! أنا أعمل في مستشفى كمسئولة بالمعمل. أجري للناس رسم القلب. قل لي بالله عليك لماذا يكون التعبير عن حال الإنسان بالكلمات؟ لماذا لا يمكن تقديم أخبار عن شخص بواسطة رسم القلب أو علامات أو رسوم أو إشارات؟

لماذا هذه الكلمات التي لا يمكن أن نعول عليها؟

قاطعتها قائلا:

- أنت امرأة شابة وجميلة.

نزلت إلى هذه الدرجة من المجاملة حتى أحمي مملكة الكلمات التي أعيش حياة كريمة منها كما تدعي. إن الفجوة بين ما هو في داخل الإنسان والكلمات التي تسعى للتعبير عنه يعتبر قضية قد يشارك في حلها مئات آخرون أكثر حكمة منا نحن الاثنين. لماذا تعذبين نفسك يا سيدتي؟ فلتشغلي نفسك بأمر آخر. ولتكن أمور السياسة اليومية مثلا. مادمنا تستخدم مظاهر الحرية فلنستفد منها إذن! لنستفد من الشعور بالإيجابية وأننا حاضرون بفعالية في العالم ولنغيره.

أردت أن أضيف بأنها تستطيع أن تهتم بأمور الجنس. لكن بدا لي هذا الموضوع سخيفا في موقف كهذا.

أخرجت المرأة من حقيبة يدها رسم قلب وفردته أمامي كمخطوطة ورقية من العصور الوسطى. مثلا قد يمكن التوصل إلى طريقة للتواصل مع ما في داخلنا. من يدري، ربما يكون رسم النبضات تسجيلا يعتمد عليه أكثر من اعتمادنا على الكلمات. إن رسم النبضات لا يتحكم فينا. أما الكلمات فنكتبها بعجلة ونجعلها تتحكم فينا ، تتضمن معاني تفوق قدرتها. تتسل إلى عقولنا وتحللها وتحولها إلى قوى خفية.

- إن زوج أختك الذي قادته الكلمات إلى ارتكاب جريمة ، ستحميه الكلمات أيضا. أليس هذا جميلا؟ ألا يسعدك هذا على الأقل؟ دعينا نتساءل، أين هو الإنسان الذي يسمو فوق الكلمات وفي مقدوره أن يتحكم فيها؟ لقد نسيتِ الإنسان في معركتك ضد إمبراطورية الكلمات. أليس ظلما إلصاق كل التهم بالكلمات؟ فهى مِن صنع الإنسان وهو المسئول عنها.

أمسكت بذراعي، كنت أتوقع أن ترجوني أن أكف عن الكلام والكتابة وأن أجد وسيلة أخرى للتعبير عن الإنسانية (ربما تكون الرموز أو الموسيقى أو الباليه). في هذه الحالة لن ينقذني منها سوى الساعي. غير أنها لم تدع لي فرصة للكلام. ربما يكون الرسم أو المقطوعات الإليكترونية أو سيمفونيات بيتهوفن أفضل وأكثر آدمية من الكلمات. إن الكلمات تقتل. ورغم أن ضحايا الكلمات يفنون فإن الكلمات تبقى وتستمر. تعيش وحيدة وكأنها شظايا طائرة محترقة.

- إن هذا يذكرني يا سيدتي بحرب الكواكب والطائرات المقاتلة.
- لا أعرف عما تتكلم، كلمات، كلمات...

ثم أضافت قائلة:

- حسنا، أنا أيضا في عجلة من أمري. اليوم قبل الغروب تبدأ جلسات اعتراف عيد الفصح.

إنها كاثوليكية وتحضر جلسات الاعتراف.
انبسطت أساريري وأردت أنا الآخر أن أجثو في مكان كئيب، مجهول الهوية.

رحت أحاول أن أشكك في ذلك قائلا:

- لكنها ستكون أيضا كلمات.
- نعم، لكن ستبقى حبيسة. ألم تسمع عن القديس يوحنا نيبوموك؟.. يوجد له تمثال على جسر الملك شارل في براغ.

قلت لها أنني أعرف التمثال وأقر بأن تظل الكلمات حبيسة في أعماق الروح، كل روح. وهذا هو الحل الوحيد تقريبا. لأن الإنسان يسعى دائما للحل، رغم أن الحلول لا يمكن التوصل إليها في المقهى.

دفعت مقابل كأسين العصير وشكرتها على الخطاب ثم تصافحنا. اعتذرت لها بأن زملائي ينتظروني بفارغ الصبر في السيارة في الميدان. وفي البيت ينتظرني الكثير من الكتابة والكثير من الكلمات.

# شبه مغامرة تحت المطر

كان المطر يهطل قبل الظهيرة وأنا أشرب كوب الشاي المفضل "إيرل جرين". كنت بمفردي في الشقة. رحت أعبث باطمئنان في الكتب. لا توجد في حياة الإنسان لحظة لم تسجلها الذاكرة وتعيدها بآلة الزمن إلى الوراء.

حتى في ذلك الوقت كانت شقتنا خالية، قمت بإحضار فنجانين من شاي "إيرل جرين" على صينية إلى غرفة الجلوس. كانت يداي ترتعشان وتهتز صينية الخزف الرقيق تماما مثل قلبي. منذ ذلك الوقت وبينما أقوم بإعداد كوب من شاي "أيرل جرين" أتذكر دائما "**يانا**".

جلست على الكنبة في غرفة الاستقبال وشعرها مازال مبتلا. تفوح رائحة طيبة من المنشفة ذات اللونين الأزرق والأبيض والتي سحبتها على عجل من خزينة الزوجية. كنت أشم تلك الرائحة الخاصة التي تفوح من حمام كل أسرة في العالم. كانت ترتدي قميصي المقلم ذو الأكمام الطويلة. إنه قميص المناسبات الذي ناولته إياها من الدولاب. قالت وهى تنظر مبتسمة إلى القميص:

- إنه يوم الأجازة، أليس كذلك؟

أومأت بالموافقة ، فقالت:

- لا تخف، سأرتديه فقط إلى أن يجف ثوبي.

حتى تجف البلوزة المعلقة على المدفئة في حجرة النوم والبنطلون الجينز في المطبخ. كانت

"**يانا**" تتحرك في الشقة وهى ترتدي زيا لا يعرفه أي بيت من بيوت الأزياء في العالم. تبرز من خلف قميص المناسبات المكوي على عجل تضاريس جسم امرأة اسمها "**يانا**". شعرها بني فاتح، رأسها صغير نسبيا، يمكن أن يقول عليها الفنان التشكيلي أنه جسم من الطراز القوطي (باستثناء شفتيها). قدماها رائعتان ، مسمرتان من الشمس ، قدمان طويلتان تذكران برفاهية جيل الشباب الرأسمالي. مشهد قد يحسدني عليه المسكين "**فرساتشي**". وضعت "**يانا**" السكر في شاي "ايرل جرين" برشاقة. وبطريقة ساحرة التقطت طبق الفنجان وقربته من شفتيها بعد أن وضعت علية الفنجان المزين ببرتقالة اليوسفي. إنه هدية من المسكينة أمي. أتذكر أن حركات "**يانا**" الرقيقة والتي لا تشبه حركة الأجسام الطويلة فتنتني. حركات رشيقة تذكرني بأمها الرائعة (ل)، صديقتي التي تعرفت عليها منذ سنوات في إحدى الندوات التي كانت تعقد في إحدى المدن الإقليمية بشمال سلوفاكيا.

لم يعكر صفو تلك الأمسية الممطرة سوى ذكرى الجميلة (ل) التي لا تختلف عن ابنتها سوى في الجمال الزائد والجسم الأصغر المستدير لسيدة رقيقة في الأربعين من عمرها. أقول عكرت صفو الأمسية ولكن أيضا أضفت عليها السعادة. لكن تناول الشاي كان غير مناسبا لهذا المشهد. ففي القصص ذات الطابع

الجنسي عادة ما يوضع على الطاولة شيء آخر، على الأقل ويسكي. وبالفعل كنت أحتفظ به في الخزانة. غير أنني وعدت "**يانا**" بأنني سوف أقلها بالسيارة للبيت. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشر ولا يمكن أن أجد عذرا أقدمه للجميلة (ل) ولا لـ"**يانا**" ولا لنفسي وحتى لزوجتي العزيزة التي كانت في تلك الليلة في إحدى الحفلات مع أصدقائها. لا يمكن أن أجد عذرا يبرر أن أترك الطالبة الجامعية الصغيرة تسير في شوارع براتسلافا الممطرة في منتصف الليل.

جلست "**يانا**" على الكنبة وهى ترتدي قميصي . سيقان رائعة ضمتها تحت جسمها وكأنها تلعب اليوجا. وضع لا يمكنني أن أقلدها فيه. جلست بجوارها. أخذت ملف بها قصائد قامت بكتابتها ورحت أقرأ فيه. انسجام رائع بين روحينا. قامت "**يانا**" بأصابعها الطويلة بقلب الصفحة على واحدة من بين أكثر القصائد التي أعجبتني. يؤسفني أنني بعد هذه الأعوام لم أعد أتذكر تلك الأبيات الهامة في القصيدة. كان هناك شيء عن البحث المضني عن الله، مساءً، بعيدا عن الناس بعد ليلة قضتها في المرقص (أو كما نقول نحن الرجال، بعد ليلة من اللهو). قلت لنفسي، كم هو شيء جميل أن الجميلة (ل) المتدينة لا تعرف ما هى المشاعر التي تجيش في صدر ابنتها ذات السيقان الطويلة. وهنا بدأت أشعر على صدري بشعر "يانا" الذي لم

يجف بعد. لمس شعرها رقبتي ثم راح يداعب أذني. وبحركة طبيعية طوقتها بذراعي من صدرها الرقيق. شعرت بحرارة تنبعث من خلف قميصي. لم تعترض **"يانا"** وشعرنا بنشوة لا توصف.

قلت لها بغباء ما ورد على خاطري في هذه اللحظة:

- ماذا لو رأتنا أمك الآن!

همهمت **"يانا"** ثم وضعت إحدى ساقيها تحت مؤخرتها ثم قالت متذمرة:

- لقد أزعجتني هذه اللعينة.

ثم أمسكت بأصبعي وراحت تحركه على سطور القصيدة وقالت:

- هل تعجبك فعلا؟ أخبرني!

تحدثت إلى بصيغة الاحترام. كما خلقت عدم الكفاءة بين مستوينا في أمور اللغة موقفا صعبا. أبقيتها في أحضاني ثم حاولت أن أقول لها بصوت أجش أن التقارير التي تكتبها في جريدة البلدة اليومية غريبة بعض الشيء. ثم مررت يدي على صدرها وقلت:

- يجب أن تواصلي الكتابة الشعرية، والتعبير عن رغبتك في شيء كبير، أتفهمين؟
- لكن لا يمكنني أن أعتمد عليه لكسب المال ، فالجريدة المحلية لن تنشر لي هذا الشعر.

تنهدت بارتياح وحركت جسمها لتستقر في جلستها وعلى بعد سنتيمترات من أنفي أشم رائحة قميصي الذي انتفخ وكأن مبرد حاد رفعه. هاجت مشاعري ، لكن لا، لا ، هاجت لكن بهدوء.

بالطبع لم يحدث شيء. شربنا الشاي. ذهبت **"يانا"** إلى غرفة النوم لتتأكد إن كان بلوزتها قد جفت. وبحركة سريعة خلعت قميصي وارتدت بلوزتها الزرقاء، واختفت سيقانها الطويلة الرائعة خلف السروال الجينز المستدير. وصارت مرة أخرى الطالبة **"يانا"** ابنة صديقتي العزيزة (ل) التي التقيت بها في ذلك المساء الممطر في وسط مدينة براتسلافا حيث كانت مبتلة تماما من المطر. التقينا أمام قصر الثقافة وعرضت عليها أن أقلها بالسيارة إلى عمة لها تسكن في حي "كرامار" حيث تقيم هناك في إحدى المدن الجامعية. كان مقعد السيارة مبتلا تماما من تحتها وأسنانها تتذبذب.

- إنك ستصابين بالتهاب في الرئة أيتها الفتاة.

توجهت بعدها إلى المبني الذي نقيم به.

قالت وهى تتفأفأ:

- أريد حماما دافئا.

أحضرت لـ"يانا" منشفة ثم صنعت لها الشاي وقمت

بوضع بلوزتها وسروالها على المدفأة.. وهكذا استمتعت بأمسية جميلة مع جسد وروح فتاة ذات رائحة ذكية. أحمد الله على ذلك.

لم أر **"يانا"** سوى مرة واحدة بعد ذلك عندما جاءت إلى براتسلافا لطلب تأشيرة دخول من السفارة الأمريكية. جلسنا في مقهى "روكلاند" لكنها كانت شاردة بأفكارها بعيدا.

لا أعرف إن كانت **"يانا"** سعيدة أم لا. يبدو أنها لم تنس تلك الأمسية الممطرة. تلقيت منها منذ وقت قريب بطاقة بريدية بها مبني متحف الميتروبوليتان للفنون ، مبني ضخم. ومازال البحث جاريا عن لحظات السكينة التي تكتنفها الأسرار.

# ابـتلاء غـاندي

**لم** يغادر طالب الفلسفة السمين"**جروبال**" منذ أكثر من أسبوع مبنى المدينة الجامعية الذي يختفي بين أشجار مدينة الجامعات الواقعة على هضبة قريبة من مدينة "ناي ديلهي". لم يخرج حتى للعب التنس. إنه يستعد لامتحان مادة الفن الهندي الحديث ، يقرأ عن مذبحة أمريستار. يدافع عن نفسه أكثر من أي شخص حوله. علقت بذهنه في الهواء الجاف فكرة تتغير ملامحها باستمرار. مرة تبدو له على هيئة زميلة له اسمها "أمريتا"، يقابلها أحيانا في ندوة تاريخ الهند في القرن العشرين (ترتدي أمريتا الساري ذو اللونين البنفسجي والأحمر الغامق ، تفوح منها رائحة طيبة) ومرة كرجل عجوز ملأت وجهه التجاعيد، يرتدي نظارة بإطار من سلك معدني، اسمه غاندي أو الماهاتما أو الأب الكبير.

وقع "**جروبال**" بين نارين: من ناحية تطارده مذبحة أمريستار، في مدينة سيخوف المقدسة بإقليم البنجاب ومن ناحية أخرى يمتلئ قلبه رعبا من صور أمريتا التي ترد على خاطره. تلك الفتاة التي توزع ابتسامتها على كل زميل لها.

توجد على مكتبة المتهالك فضلا عن الكتب مجلة تصدرها منظمة "هندو محاسبا" وهى منظمة لفرقة من الهندوس المتطرفين التي

ظهرت منها جماعة من المتطرفين قاموا في يناير ١٩٤٨ بقتل غاندي.

إن **"جوبال"** هذا الطالب السمين ثقيل الحركة ، يتمتع بروح عالية للدعابة. أظهر تعاطفا مع المتطرفين الهندوس الذين يمثلون أقلية ويختلفون عن غيرهم وذلك رغبة منه في حياة التقشف وحتى يختلف عن الآخرين الذين وقعوا تحت التأثير الغربي.

أمر صعب أن تشرع في التفكير بعد الظهيرة في الهند. الهواء الجاف عالق في الحجرة. يقفز غراب أسود على حافة النافذة التي جفت بعد ريح موسمية ممطرة ليترك المكان لطائر آخر قادم من داخل غرفة **"جوبال"**.

إن الأشخاص الذين يملأهم الخوف والفزع من أفكارهم الخاصة ينشرون ستارة مظلمة على أفكار غيرهم.

بداية ومن أجل إنعاش الذاكرة فلنذكر شيئا عن المجزرة التي ارتكبها الإنجليز في مدينة "أمريستار" في ١٢ أبريل ١٩١٧.

الكثير من البيانات عن تلك الفترة توفرها لنا تقارير وكالات الأنباء العالمية آنذاك وكذلك سيرة غاندي الشخصية وتقارير لجنة التحقيق البريطانية (لجنة هانتر).

اجتمع قبل يومين من المذبحة ثلاثون ألف مواطن هندي في أحد ميادين هذه المدينة الواقعة في إقليم البنجاب احتجاجا على القبض على "غاندي" وزملاءه في العمل. حاولت القوات

الإنجليزية تفريق المحتجين. راح الناس يدافعون عن أنفسهم مستخدمين الحجارة والعصي. سقط عدد منهم قتلى. اتجهت القوات الإنجليزية في المساء إلى أمريستار بقيادة اللواء **"رجينالد ا.هـ. داير"** وأعلنوا حالة الطوارئ في المدينة. منع هذا اللواء التجمعات واللقاءات. أمر بنشر الأوامر على اللافتات وفي الإذاعة (اعترفت لجنة هونتر أن بعض قطاعات المجتمع لم تصلها الأوامر).

في الثاني عشر من أبريل دعا الهنود إلى مظاهرة كبرى في الساعة الرابعة بعد الظهر. كان الجنرال "داير" على علم بهذه المظاهرة منذ الصباح غير أنه لم يسعى لمنعها. (أعلن فيما بعد أمام لجنة التحقيق بحماس قائلا: "لقد قررت أن أبيدهم جميعا!").

ميدان "جاليا نافا باج" هو ميدان مستطيل محاط بالبيوت. لا يوجد به سوى ممر ضيق يعتبر المدخل والمخرج الوحيد في الميدان. تجمع في الميدان عشرة أو عشرون ألف متظاهر. رجال ونساء وأطفال.افترشوا جميعهم الأرض وراحوا يستمعون إلى أحد الخطباء (تذكر لجنة هونتر أنهم لم يكونوا مسلحين).

تحرك الجنرال **"داير"** يرافقه مئة من الجنود الإنجليز. وضع عربتين مدرعتين مزودتين ببنادق آلية عند مدخل الميدان ثم أصدر أوامر بإطلاق النار على المتظاهرين بدون إنذار. أطلق الجنود الإنجليز ١٥٠٠ قذيفة على الجمهور

خلال عشر دقائق (طبقا لشهادة الجنرال أمام اللجنة). سقط ما يقرب من ثلاث مئة قتيلا وألف جريح على أرض الميدان. وبعد إطلاق النار تقدم الجنرال وحدة من النيباليين التي قامت بالهجوم على المتظاهرين بخناجر معقوفة.

اصطف الجنود بعد انتهاء "العملية" وعادوا إلى القلعة في مسيرة منظمة.

انتهت لجنة هونتر للتحقيق إلى أن المتسبب في مذبحة أمريستار هو الجنرال "**رجينالد ا.هـ. داير**" وذلك "لسوء استخدامه لسلطاته". لكن الجنرال ظل في منصبه. فما فعله كان في إطار القانون لكن باستخدام القوة المفرطة نسبيا.

وما أن علم "**غاندي**" بالمذبحة حتى أوقف حملة العمليات السلمية ضد الإنجليز. وظل المسئول المباشر عن أحداث أمريستار في نظر العالم حتى اليوم هو الجنرال "**داير**" والحكومة الإنجليزية في الهند.

لكن الطالب "**جوبال**" يفكر أيضا في "**أمريتا**" وراح يكتب في مفكرة سوداء رؤيته الخاصة عن المذبحة.

يبدو أن المسئول عن مأساة أمريستار هو الجنرال "**داير**". يعتقد "**جوبال**" أن التاريخ ما هو إلا صراع الأقوياء أما الناس – جنودا ومتظاهرين - فهم يعملون بناء على أوامر غيرهم. لقد نسي "**جوبال**" الغربان التي تتطاير في الحجرة وراح يكتب على الورق رؤيته للأحداث وعصارة أفكاره المعقدة.

حاول **غاندي** أن يتبع تعاليم "الباجاواجيتا" ومبادئ الأوبانشاد. كان **غاندي** طوال حياته براهماتي. الأمر الذي جعله يزهد في الحياة الجنسية. فصفاء الروح لا يمكن الوصول إليه سوى بالتحرر من الرغبات الحسية والزهد. لقد توقف "غاندي" عن ممارسة الجنس مع زوجته وبالطبع مع السيدات الأخرى وهو في سن السابعة الثلاثين أثناء إقامته في جنوب إفريقيا. "الأهينسا" وهو حالة الحب العامة ونبذ العنف وتتطلب البعد عن العدوانية حتى في العلاقة بين الرجل والمرأة. فكان "**غاندي**" يقول إن الرجال تتخذ دائما موقف المهاجم، لذلك تكون العلاقة عنيفة في كل أفعالها. وتعلم الهنود من اليوجا أن الخضوع للشهوة الجنسية يفقد الإنسان سيطرته على نفسه وتنزله منزلة الحيوانات. وفي النهاية توجد مسألة يتفق عليها كل البشر: إن العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة تجعل القائد السياسي يحيد عن دوره في خدمة سائر مواطنيه وعن حبه لهم جميعا.

(لنترك جانبا هذه المسألة الهامة والتفكير فيها. فآراء

**غاندي** هذه ليست جديدة. فقد قام اليسوعيون الأسبان، أنصار علم الفضيلة والأخلاق ببحث هذه الآراء باستفاضة قبل ذلك في القرن الثامن عشر.)

يعرف "**جوبال**" أنه ليس سهلا مقاومة رغبات الجسد. وهو حتى لا يقاوم. لذلك فهو

يمقت في قرارة نفسه قرار غاندي ولا يفهمه ويسخر منه. ويشكك في مثابرة غاندي. يبحث في مذكرات غاندي عن أية إشارة أو تلميح إلى نقطة ضعف.

وجد ما يبحث عنه. لقد اعترف غاندي وهو في الستين من عمره أنه لا يجد مشكلة في التحكم في جسده لكنه لا يسيطر تماما على أفكاره".

توقف **"جوبال"** عند هذا وراح يفكر في **"أمريتا"**. تلك الفتاة التي عليه أن يلمسها في يوم من الأيام و إلا سينتهي.

يسجل طالب الفلسفة ملاحظاته ويتذكر محاضرات حول ارتباط العالم ووحدته، حول قانون الكرمة الذي انتشر من الفلسفة الهندية القديمة إلى كل بقاع الشرق. مفاده أن كل إنسان مسئول عن أعماله و لا يوجد منقذ من خارجة أو ضغط خارجي. إن أفعالنا هى أقدارنا. هذه هى الكرمة ، القدر.

تختلط الأمور في رأس **"جوبال"** وهو يحاول صياغة أفكاره. لقد أراد **غاندي** أن يكون قائد للأمة. غير أنه يمكن أن يكون مسئولا عن مصائر الآخرين أو يخلصهم من أقدارهم. إنه الرجل الواثق من أن قدره لن يؤذى الآخرين. وعليه وكما يري **"جوبال"** فإن هؤلاء الناس يجب أن يكونوا طاهرين حتى في سرائرهم.

أعلن "غاندي" في كل أرجاء الهند عن حملة النضال السلبي ضد الحكومة الإنجليزية. أثر في

حياة الملايين وجعلهم يخرجون إلى الشوارع. لابد وأن يكون طاهرا طالما أنه راح يؤثر في حياة الآخرين.

في الواقع أن **"جوبال"** تؤرقه فكرة أن **"غاندي"** لم يتلوث كونه قطع زهده في الحياة الجنسية. كلا، كلا... ("جوبال" يري زميلته **أمريتا** وهي تتهادى في مشيتها. لا يمكن القول بأن (الماهاتما) قد صار ملوثا وغير طاهرا قبل شروعه في الكفاح). غاندي نفسه يعترف بأنه مازال لا يتحكم في "أفكاره".

جلس الطالب **"جوبال"** على الحصير عند النافذة يتحسس جسده وعضلاته في جو حار يدعو للكسل. يتذكر زياراته للمعابد وتماثيل الآلهة المعراة. تقوي هذه الأفكار قناعته بأن غاندي لم ينتهك قانون الزهد بأفعاله أو على الأقل بأفكاره.

راح **"جوبال"** يفكر في أمور كبيرة أصابته بالتعب. وهى أن الابتلاء أمر دائم ويتعرض له كبار المتدينين. وهذا هو حالهم لكي يقاوموا هذا الابتلاء بكل ما أوتوا من قوة وبذلك يحصلون على المجد والاحترام الكبيرين.

تعرض **غاندي** للابتلاء مرات عديدة. هذا أمر مؤكد. كان ذلك في أوقات التوتر السياسي حيث كان الجسد يشتاق إلى التغيير والاسترخاء. ربما حدث هذا في ليال حارة ذات طقس جاف، أو ربما في وضح النهار. ربما رفرف عليه الابتلاء بجناحه النهم أثناء دراسته

لفن المعابد أو أثناء قراءة نصائح الراهب في كتاب "كاماسوترا".

وعندما جاءت اللحظة الحاسمة ووقف الجنرال " **رجينالد ا.ه. داير**" عند مدخل الميدان الضيق في أمريستار على يمينه وقف الضابط المعاون ممسكا ببندقيته الآلية ينتظر الأوامر، وقتها لم يقوّ **غاندي** القابع في سجن بومباي على بعد ألف كيلومتر جنوب البلاد على الابتلاء. بريق الضمير الخافت ، موافقة على استحياء، ذنب الضمير الرهيب، الذي يؤرق المتدينين الكاثوليك والإنجليكان ويمثل موضوعا للاعتراف اليائس، تماما كما هو الحال في الشرق بأكمله. لنذكر هنا بعض الجمل الافتتاحية في كتاب "دامابادم" والذي ينسب لبوذا: "كل ما نحن عليه هو نتيجة لما نفكر فيه، كائن في أفكارنا ونابع من ضمائرنا... الذنب الذي نقترفه بضمائرنا مساوٍ للفعل. إن الذنب واضح كبقعة المداد علـى روح الماهاتما الطاهرة كالثوب الأبيض الناصع... في تلك اللحظة ينطق جنرال مجهول بكلمة "أطلق النار!" ربما حتى لا يعرف كيف نطق بهاتين الكلمتين. كانت الكراهية هى الدافع وراء إصدار هذا الأمر. هو نفسه ترتعد فرائدة ولا يتذكر سوى نباح البنادق الآلية.

توقف "**جوبال**" عن الكتابة. لكن الأمور أصبحت واضحة له. فهو يرى سلسلة لا تنتهي من قانون "الكارما" الذي ربطوه بأحداث الثاني

عشر من أبريل ١٩١٧ في الساعة الرابعة عصرا في المنطقة الواقعة بين مدينة أمريستار وبومباي. ألف كيلومتر يفصلهما. لكنه لا يمثل عند قوة الروح أكثر من خطوة لا تذكر. قفزة لبرغوث أو صرصار.

إن ذنب **غاندي** عظيم إذن. ذنب فادح ارتكبه في حق روحه وفي حق الثقة التي منحها إياها مريدوه.

يبدو أن **"جوبال** "يكتب هذه الدراسة لمجلة تصدرها منظمة "هندو ماهاسابها" التي ستستغله بالتأكيد سياسيا للهجوم على غاندي. يمكن أين يتوصلوا بحججهم ومغالطاتهم إلى أن ذنب الجنرال الإنجليزي هو أنه لم يكن له وجود على الإطلاق في تلك اللحظة وهذا ذنب بسيط بالطبع .. لكن طالب الفلسفة يعرف أن هذا سيكون مجرد نتيجة سطحية لبحثه. يريد "جوبال أن يكتب بحث تخرجه، حيث يثبت من خلال شروح قواعد الفلسفة الهندية القديمة أخلاق المجتمع البشري في كل أنحاء العالم، المجتمع الذي تربطه سلاسل الكارما وآثارها على الحياة الاجتماعية.إن الأعمال السيئة والأفكار الخبيثة تتحرك في عالم مغلق كجزيئات الماء في الكأس، ترتطم ببعضها وتغير من مساره بعضها البعض.

إن عتاة المجرمين هم من يتصفون بالطهارة ويصيبهم ظل الابتلاء. ينطبق هذا بصورة واضحة على من لهم الحق في ارتكاب الذنوب

والتنصل من المسئولية والإفلات من العقاب.
هذه هى النتائج الطبيعية التي سيخرج بها قُرّاء الدراسة التي يقوم بها جوبال.

يحاول **جوبال** وهو يكتب آراءه أن يستمتع برغبة دفينة مع "**أمريتا**" كلما سمحت له الأفكار بذلك. حيث أن مصائر أبطال رسالة التخرج تتحكم في تفاصيلها.

نهض **جوبال** من على الحصير وأغلق دفتر ملاحظاته وراح ينظر من النافذة. حط طائر من طيور الصباح على الرصيف المغطى بالحصي في المنتزه ، ينقره طائر آخر. انقبض قلب جوبال. شم رائحة الدم. فقد أصاب الطائر بإحدى أفكاره. وضع رأسه بهوادة في حوض الغسيل ودس رأسه المشتعلة بالأفكار تحت صنبور الماء. لكن للأسف ، راحت مياه ساخنة تتساقط بكسل من الصنبور. لم يكن ليفاجأ بالأمر لو أنه لم يقرأ منذ ساعة على لوحة الإعلانات في مبنى الجامعة الرئيسي إعلان يقول أن الطالبة الجامعية "**أمريتا**" قد لقيت حتفها ظهر اليوم في مدينة ناي ديلي وهى ترتدي فستان الساري.

# (ليوليتشانج)

# صـــور مـــن شـــارع

*(وقعت أحداث هذه القصة في السابع عشر من سبتمبر ١٩٨٧ في مدينة بكين. لا يوجد شهود على الحادث باستثناء شاهدتين صينيتين لا أعرف أسمائهن. فضلا عن أنني فقدت مؤخرا أثناء ترحالي حافظة بها صور الأجازة التي قضيناها في مدينة بكين)*

- ألم تذهب إلى شارع "ليوليتشانج بعد؟

هكذا راح شقيق زوجتي يكرر على سمعي هذا السؤال تقريبا كل يوم . للأسبوع الثالث على التوالي ونحن نجوب شوارع بكين في درجة حرارة استوائية مرتفعة. جبنا أسواق تمتد على مسافة كيلومترات، تجولنا في المتاجر . أصابنا الإرهاق عند أعتاب المعابد والكنائس الشاهقة التي أعيد افتتاحها. قدت الدراجة على مدى عشرات الكيلومترات.

- لقد كنت قريبا من "ليوليتشانج".

بالفعل لم يكن الشارع يبعد كثيرا عن "المعبد السماوي" المجاور للمنتزه وقريبا من ميدان "الراحة السماوية".

- إن شارع "ليوليتشانج" على بعد خطوات من شارع "تشيخيان مان" فهو خلفه تماما.

وعبثا رحت أتحجج بأننا تجولنا في حارات تجارية ضيقة قبل الظهيرة حول شارع "تشيخيان مان" الذي يعتبر شوق شرقي بمعنى الكلمة حيث تدب الحياة في هذا الشارع الضيق

، يبيع الناس فيه ويشترون ويطهون. يكافح فيه المشاة مع سائقي الدراجات وعربات النقل اليابانية الخفيفة.واليوم لن نذهب إلى أي مكان حيث أنه أصابنا الإرهاق الشديد.

- لكن لا يمكنكم أن تفوتوا زيارة شارع "ليوليتشانج". اسمع كلامي!

رفضت **"إيفا"** بشكل قاطع أن تقوم بزيارة أخرى لشارع يعج بمكتبات بيع الكتب ومحلات الكتب القديمة بقدميها المنهكتين.

هب في صباح ذلك اليوم نسيم عليل. كان الساعة التاسعة تقريبا عندما لاحظت من على دراجتي التي بالكاد أقودها تل خرساني يقع أمام "المدينة المحرمة". تجاوزت حدود ميدان (الهدوء السماوي) المترامية وبحركة دائرية رحت أتجنب طابور طويل يقف أمام ضريح **"ماو"**. مررت بواحد من أفضل المطاعم الذي يقدم لحم البط في بكين، ثم توجهت صوب الجنوب تجاه شارع "مانسين هاو" العريض. ورحت أتذكر كلمات شقيق زوجتى :

- يقطع هذا الشارع شارع "ليوليتشانج" الصغير.

كنت وحدي بين حشود الصينيين، أخذت أجاهد للسير على حافة الطريق. ما هى المعجزة التي يمثلها "ليوليتشانج"، هذا الشارع الصغير ؟

مدخل شارع "ليوليتشانج" لا تخطئه العين. فعلى ناصيتيه تقف مبان عتيقة. يوجد في جهة اليمين مطعم في بيت قصير، يبدو وكأنه من

الحكايات الصينية القديمة. وفي جهة اليسار يوجد متجر أنيق لبيع الهدايا الصينية، وهو أيضا مزين بألوان متعددة تحاكي فن العمارة الصينية القديمة.

نزلت من على الدراجة، ثم أوقفتها على جدار المطعم الصيني حيث كانت تقف هناك العديد من الدراجات الأخرى. أغلقت الدراجة ثم أخذت من صندوقها كاميرا التصوير وحقيبة صغيرة بها مستنداتي مع كتيب في المحادثة باللغة الصينية لم أفتحه مطلقا قبل الآن. كانت كل محاولة أقوم بها لنطق أي شيء باللغة الصينية تصطدم دائما برد فعل باهت وابتسامة على وجوه الصينيين.

"ليوليتشانج"، شارع الكتب والفن، الشارع الذي به منطقة مشاة. شارع نظيف ومبلط. تنتشر به المتاجر الملونة أسفل كوكبة من الأبنية من الطراز الصيني القديم. شارع صغير، يسيطر عليه الهدوء والوداعة. لا تعكره بعد خشخشة مكانس الكناسين، ولا تشوهه أكوام التراب. التجار يقلبون في سكينة بأيديهم الناعمة المنتجات الخزفية ومزهريات النفريت وأقواس العاج المزركشة ورائحة تماثيل حكماء "طاو" الخشبية العطرة. تسمع خشخشة الأوراق في كل مكان وتتفتح مراوح الهواء بالتدريج، وتنتشر هنا وهناك سيدات صينيات بملابسهن الحريرية.

تقف في منتصف الميدان دراجة نارية براقة وعملاقة. قام شاب صيني يرتدي سروالا من

الجينز بغلق الدراجة بحرص، ثم يثبت الخوذة على المقعد ويسير في شارع الفن الهادئ الصغير "ليوليتشانج".

انعطفت في الاتجاه المعاكس تماما للصبي حتى وجدت نفسي في حارة جانبية ضيقة.ظهرت من متجر صغير فتاة ترتدي بنطلون جينز ضيق وبلوزة بيضاء وكأنها تطل من كتاب مفتوح. جعلتني حركتها الرشيقة أدخل إلى المحل. كان وجه الفتاة ناعما بشكل غير معتاد، وجهها كوجه الأطفال شأنها شأن كل الفتيات الصينيات. راحت تموج بين خزانات العرض الصغيرة وكأنها نسمة هواء تفتح أمامي ألبومات صور رائعة. صور لسيدات صينيات مرسومة بريشة خفيفة وبيوت عند بحيرات مجهولة. توقفت عند إحدى هذه المعروضات.

قالت باللغة الإنجليزية وهى تضع الكتاب في يدي:

- أتريد هذا يا سيدي؟

تحسست الغطاء المغلف بالقماش. **"إيفا"** تقول عليه أنه قماش "سَتان". إنه كتيب صغير بدون كلمات. به تسعة لوحات رقيقة ملونة عليها تسعة شخصيات من الفتيات الصينيات في أزياءهن التقليدية. يوجد أمامي الآن بجوار الآلة الكاتبة وهو التذكار الوحيد لما حدث في شارع "ليوليتشانج". الدليل الوحيد الذي تبقى لي.

لا أعرف اسم هذا الكتيب المصور ولا اسم مؤلفه. تذكرني العلامات الصينية الأربع على

قماش الستان وأنا أنظر إليها من أعلى إلى أسفل بطائر النورس وهو يطير، ورمح نبتون ثلاثي الشعب، لعبتي وأنا صغير بالقلم المعدني الجاف والقلم الحبر في حصص تعليم الخط في المدرسة. العلامة الأخيرة عبارة عن شجرة مجهولة الأصل بها أغصان، هذبها جنايني ماهر.

بالتأكيد ستضحكون عندما تعرفون أن البائعة ابتسمت بطريقة ساحرة وأنا أدفع لها المبلغ المطلوب بلا تردد. فها هي قد أتمت أول بيعة ببساطة في الصباح قبل الساعة العاشرة. حصلت على "إيوانات" من رجل أبيض يثير الشفقة يرتدي شورت من القطن اشتراه من محل "بريور" في مدينة براتسلافا والذي يحمل كاميرا عتيقة كتلك التي يحملها الألمان أو الاسكندنافيون أو الأمريكيون.

ودعتني البائعة الصينية وهى ترافقني حتى قرب الميدان الصغير حيث تقف الدراجة النارية وقالت:

- نتمنى أن تزورنا المرة القادمة يا سيدي

في الواقع أنني لم أدخل معرض أو متجر آخر. فقط وقفت أمامها. فقد تناقصت الإيوانات في حافظتي بشكل ملحوظ وأنا مازلت في بداية اليوم. قمت بتصوير مداخل البيوت المزركشة، ورحت أتابع الزائرين الآخرين الذين بدأو يتوافدون على المكان. كانوا بلا شك من الألمان والاسكندنافيين والأمريكان وبعض اليابانيين

الذين أقنعوهم أشقاء زوجاتهم أو كتب الرحلات بأن يزوروا شارع "ليوليتشانج" قبل الظهيرة.

فواحة الكتب والفن هذه لا تدب فيها الحياة إلا نهارا، في وضح النهار. أجمل لحظة هى لحظة الظهيرة عندما لا تنعكس ظلال جدران المتاجر الصينية على الأرصفة وتعلوها مناطيد وسط سماء صافية وكأنها حراس حقيقة تحميها. إن تجار شارع "ليولتشانج" مهرة جدا. صدقوني!

بعد لحظة شعرت بجواري بشابة صينية ترتدي تنورة ضيقة وبلوزة حمراء محكمة الغلق حتى رقبتها بطريقة تنم عن عفة. لا أتذكر إن كانت قد جذبتني من يدي أو قالت لي شيء ما. فجأة وجدت نفسي في معرض ومتجر متعدد الطوابق.

- إنها مجرد زيارة يا سيدي...

أخذت أطالع الفترينات. لم تكن هناك صور، بل تماثيل لآلهة ومجموعات كاملة من الأسطورة الصينية. عجائز بلحى طويلة مدببة وعصي غريبة ومراوح يد، بجوارهم سيدات ذات جمال ملائكي وأفواه كحبات التوت. أما هذه المرأة الحقيقية التي تقف بجواري فكانت تثرثر مع زميلها الشاب (ربما يكون شريكها أو أخوها مثلا). الأمر الذي هدأ من روعي. اختفيت بين التماثيل، أرها كلها متشابهة إلى حد كبير ولم أفهم المغزى منها. أراد هؤلاء الاثنان شرح الأمر لي لكنهم وبصورة بديهية لم

يتجرءوا على إرهاقي بالاستماع إليهم. كان بين هذه المعروضات تماثيل للثمانية الخالدين الذين عبروا النهر. من بين هؤلاء الخالدين **"تشان تشونجلي"** التاوي الذي ذهب إلى الجبال يبحث عن النور الأعظم. وعندما عاد إلى العالم الحقيقي قتل بسيفه المعقوف الطائر نمرا وحوّل العسل إلى ذهب لكي يساعد الفقراء. وفي نهاية المطاف صعد من جديد إلى السماء. يصورونه وهو يمسك مروحة يد مصنوعة من الريش في وضع استرخاء.

لقد صرت أعرف أن صورة الشاب الذي يركب حمارا ويواجه بجسده ووجهه مؤخرة الحمار تمثل القس **"تشانج جولاو"** يقال أنه عاش عدة قرون في عصر الإمبراطورة **"وو تستيان"** (في القرن السابع قبل الميلاد). أرادت الإمبراطورة أن تلتقي به إلا أنه رفض وادعى أنه مات. شاهده الناس بعد ذلك في جبال قريبة من **"هينج تشاو"**. تجول ممتطيا حمارا أبيضا، كان في مقدوره قطع آلاف الأميال في اليوم الواحد. وعندما كان **"تشانج"** ينام، كان يطوي حماره تحت جسمه وكأنه حمار من ورق. أو أنه كان يضعه في جيبه.

كان هناك أيضا تمثال آخر لأحد الثمانية الخالدين وهى الفتاة **"هي سيانجو"**. نالت الخلود وهى في الرابعة عشر من عمرها عندما أكلت مسحوق زجاجي. بعدها مس جسدها السحر وصارت تطير فوق الوديان وتتنقل بين أسطح

المنازل وتجمع الفاكهة لأمها الفقيرة. إن "هي سيانجو" تعد إلهة الأعمال الخيرية.

كان "تيجوي لي" أعظم الثمانية الخالدين حقا. "لي" الذي يحمل عصا حديدية. وهو من التاو العلمانيين. وسوف نتحدث عنه لاحقا.

لا أكاد أتذكر الحوار الذي دار بيني وبين البائعين في هذا المعرض. في أحد الأدوار عثرت في إحدى خزائن العرض على كاميرا للتصوير تعود إلى بدايات القرن. من عصر آخر إمبراطور وهو "بخو إيه" (راجع فيلم برتلوشي). ألمحت لكليهما بحزن أنني لن أشتري شيئا من عندهم فأنا من بلاد بعيدة. أردت بهذا أن أخلق جوا من الإثارة، لكنهما ابتسما مقدرين ما قلته. أما أنا فقد كنت غارقا في العرق حتى ابتل سروالي القصير. وقت الظهيرة يقترب وعلق الهواء الساخن في سماء المعرض وانتشرت رائحة الخشب الثقيلة ورائحة الزعتر والستائر المتربة وعطور أجنبية و معطر للفم.

- من أوروبا؟

تنهدت قائلا: من أوروبا. ثم نطقت على مهل باللغة الإنجليزية: من تشيكوسلوفاكيا. دولة اشتراكية أيضا. وسط أوروبا.

رحت عبثا أبحث عن كرة أرضية صغيرة لأريهم موقع بلدنا الصغير عليها. غير أن العالم في شارع "ليولتشانج" لا يحب الوسائل المساعدة البسيطة مثل نموذج الكرة الأرضية.

حتى فهمت أن نموذج الكرة الأرضية هى وسيلة حمقاء وبدائية ولا تعطي معلومات صحيحة عن فهم وحدة العالم الذي هو مختلف عما تصوره "بيهيم" وغيره من المتخصصين في علم الخرائط الأوروبيين خاصة ونحن على أعتاب عصر جديد.

ينتهي شارع "ليوليتشانج" من ناحية اليسار، تماما كما تصوره خريطة بكين. حيث تظهر في نهايته المخازن وأكشاك لبيع الخضروات. ثم لا تظهر سوى الأكواخ وعربات الكارو وأسوار قصيرة متهالكة تختفي من وراءها المباني السكنية الصينية القديمة الشهيرة بـ "خوت خونجي" والتي تفتح بنوافذها الصغيرة على أفنية. محاكاة للبيوت الرومانية ذات الردهات.

عدت من جديد إلى الشارع. وجدت معارفي الصينيين الشباب يقفون في الشارع أمام المعرض . طلبت من البائع أن يصورني مع زميلته (أو أخته أو صديقته) الرقيقة. أخذ مني الكاميرا بابتسامة أما أن فحاولت الاقتراب من الفتاة الصينية. ستظهر تنورتها البيضاء وبلوزتها الحمراء بصورة جيدة في كارت بالألوان. لكن الفتاة بدأت تهز يدها وتقول بالإنجليزية:

- ليس معي ، من فضلك!

في النهاية سمحت بأن ألتقط لها صورة بفردها أمام المعرض. كانت سعيدة وعلت

وجهها ابتسامة. للأسف لا يمكنني العثور على هذه الصورة.

هذه هى الحياة. لا يمكنني تذكر الأسماء ولا العثور على الصور. كل ما أنا واثق منه أنني التقيت بهؤلاء الناس وأنهم كانوا أناس حقيقيين.

هنا الجزء الخاص بالأدب.

نعم، تم تخصيص الجزء المقابل من شارع "ليوليتشانج" لكتب الأدب. من الجميل أن تكون في بلد عندها في العاصمة شارع بأكمله مخصص للأدب رغم ما بها من عيوب كثيرة. أثار هذا الأمر إعجابي. كان هذا الجزء من الشارع أكثر ازدحاما. جلس على سلالم أحد متاجر بيع الكتب القديمة مجموعة من التلامذة الصينيين. كان معهم كراسات رسم مفتوحة يرسمون فيها، أو ربما يكتبون. إن الرسم والكتابة في الصين نشاطان لا ينفصلان. راح هؤلاء الأطفال العشرون الذين يرتدون "تيشيرتات" ملونة عليها كتابة باللغة الصينية أو الإنجليزية أو صورة سور الصين العظيم ينظرون إليّ بداعي الفضول، لكن سرعان من طأطأوا رؤوسهم مرة أخرى ينظرون في كراسات الرسم. ربما يكونوا يرسموني أو يخلدوني في أحد الرموز التي لن أفهمها مدى الحياة. بدأت أشعر بنوع من القلق الغامض بفعل نظرات عشرين عينا من عيون هؤلاء الأطفال. شعرت وكأنهم أخذوا جزءا من نفسي. راحوا يهمهمون ثم التفوا حول بعضهم وتشاوروا بهدوء

مع مدرسة شابة ترتدي بنطلون من الجينز ، ثم واصلوا الرسم بعناية. أما أنا فهرولت إلى داخل المتجر المقابل.

كان هو أيضا متجر لبيع الكتب القديمة. توجد على أرففه العالية مئات ومئات من الكتب وكأنني في مكتبة المدينة. رأيت من بين الأرفف أحد الصينيين وهو يلتقط بسعادة أحد الكتب. رأى من خلف عدسات نظارته فجأة شيئا يقف أمامه، رجلا من أوروبا الشرقية وهو أنا. شيء لم أره من قبل ولا من بعد. ربما أكون أديبا كبيرا من بلد نائي صغير (بلد لا يمثل سوى محافظة من محافظات الصين كما أطلق عليه أحد وكلاءنا التجاريين). فكل ما أعرفه من لغات أوروبية أخرى وكل ما تعلمته من الرسم وحتى العلامتان التي يتكون منهما اسم الصين. لكن هنا تتوقف كل محاولاتي لفهم مليار من البشر على هذا الجزء من الكرة الأرضية.

دخلت في هذه الأثناء سيدة شابة إلى محل بيع الكتب
القديم، راحت تتطلع إلى أعلى إلى العلامات التي ربما تشير إلى أنواع الأدب المختلفة. وبسعادة راحت تجمع الكتب واحدا بعد الآخر. ثم نادت بصوت هادئ على صديقتها التي اختفت خلف أحد الأرفف وأظهرتا كل منهما سعادة بكتاب لن أشعر تجاهه بمثل هذه السعادة مطلقا.

- ماذا تقرءان؟

ربما تكون نسخة من كتاب وثائقي يعتبر فصل من ثمانية وخمسون فصلا تعود إلى الفترة من القرن الثالث والعشرين حتى القرن الثامن قبل الميلاد. مجموعة من الخطب الرسمية للحكام أو محاولة لإعطاء رؤية فلسفية عن العالم باستعمال نظرية العناصر الخمس. أو ربما تمسكان بكتاب يحكي عن أسطورة الثعبان الأبيض "سونجن"، وهو الثعبان الألفي الذي بلغ بكماله أعلى منزلة وتحول إلى امرأة جميلة. أو عن "سياو تسين" وصيفته التي كانت من قبل ثعبان أخضر. ذهبا معا لزيارة مدينة "شانج تشو" الجميلة. وعندما داهمها المطر عرضت عليهم مظلة المطر المساعد بتناول عقار "سو سيان" من أقرب صيدلية. فوقعت "سياو تسين في غرام الثعبان الأبيض "سونجن" وتزوجته. وعندما أسكرته وهما في قمة النشوة وأشربته النبيذ، فقدت المرأة الجميلة صورتها وتحولت إلى إحدى الزواحف الكريهة.

ما الذي يهم هاتان الفتاتان؟ لعلهما تتصفحان ترجمة لإحدى الروايات البوليسية لـ "رايموند تشاندلر" أو في رواية ميلر "نيران على القمر" ومقالات للكنفوشي "سون سي" (رجاء ركزوا معي واعو جيدا! فالدراسة لا يمكن مقاومتها). ربما تمسكان بمذكرات "البيتلز" أو الفصل الأول من مذكرات الرئيس "سون ياتسين" (العمل سهل أما المعرفة فصعبة). ربما يكون مجرد كتيب عن صناعة الفخار أو علاج الكلي

أو آليـات السـوق فـي الاقتصــاد الاشـتراكي أو تاريخ التجميل.

لقد فقدت اتزاني بين تلك الكتب تماما. كنت أخشي أن أمد يدي وأختار ولو كتاب واحد. عبثا رحت أبحث عن كتاب بأحرف لاتينية أو حتى بالخط الروسي. لم أعثر على أغطية الكتب رموز اللغة العربية المنبسطة أو الهندية المتسقة. لم أعثر على شيء من هذا. على الأرفف من أعلاها إلى أسفلها ومن اليمين إلى اليسار، في كل مكان وفي كل أرجاء شارع "ليوليتشانج"، أقسم لكم، ولستم مضطرين لتصديقي بأنني لم أجد كتابا لم يكتب باللغة الصينية.

وهكذا تحولت جولتي في الجهة اليمني من شارع "ليوليتشانج" إلى تجوال في مملكة تذكرني بـ" **يورجي لويس بورجس**" أعظم كفيف في عصرنا هذا. حسب معلوماتي لم يزر "بورجس" الصين. على الأقل لم يذكر أحد هذا في النصوص التي تمكنت من قرائها.

واصلت السير في شارع" ليوليتشانج" . مررت بمتجر تلو الآخر وبمحلات الكتب القديمة واحدا تلو الآخر والتي تنتشر هنا بالعشرات. أتأمل خريطة هذا الشارع وأحاول عبثا أن أفهم معنى عناوين محلات بيع الكتب القديمة التي كتبت بالأحرف الإنجليزية على طريقة نظام "بنين" مثل " Jinchang, Yunyuzhai, Songyunge, Siyatang" أو العنوان

فـي الجهـة المقابلـة " Yidege" أو Daizexuan. وجدتها!! بجوار هذا العنوان عنوان آخر نفهمه وهو Yanjing Calligraphy أي "بيت الفن"، وهو إحدى الورش التي تستمتع فيها بجمال فن الخط ودراسـة تـاريخ أسـاليب الكتابـة التـي استخدمت لكتابة الرموز منذ عشرة أو عشرين قرنـا. لكن ماذا عن باقي المحلات؟ يمكنني أن أتصور أنني فـي متجـر للكتـب المتخصصـة فـي الفلسـفة الصينية القديمة، لكن في الواقع أجد من حولي كتب عن فن الحدائق أو جمع الأعشاب الطبيـة. أعتقد أنني دخلت الآن إلى قسم التاريخ، لكن في الواقع توجد هنا كتب عن صناعة محركات السفن أو المفاعلات النووية.

كنت حزينا ويائسا. قبضت بشدة على الحقيبة التـي أمسـها بيـدي وفـي يـدي اليمنـي كتيـب الجميلات الصينيات. في أسفل الركن الأيمن من كـل صـفحتين توجـد علامـة حمـراء تشـير إلـى الرسام الذي رسم الصورة وكأنها ختم شخصـي. تلك الأختام يصنعونها ويبيعونها مقابل عملات صـعبة فـي محـلات أنيقـة ومتـاجر الهـدايا فـي الطـابق الأرضـي للفنـادق الضـخمة التـي بنيـت بالتعـاون مـع شـركات "هوليـداي أن" أو "شـيراتون". يالهـا مـن فكـرة غريبـة! أن يقـوم التاجر الغني صاحب مخرطـة من هامبورج أو تاجر قمح في البورصـة في مدينـة "سينسيناتـي" الأمريكية بتهريب ختما صينيا قام صانع صيني ماهر بنقش رمز الجرأة عليه. لنقل مثلا جرأة

الخنزير... (فكما يقول "سونج تسي" أنه يوجد أربعة أنواع من الجرأة، أولها جرأة الخنزير، ثم جرأة اللص وجرأة الوسطاء...). من المؤكد أنني تسللت إلى العالم الصيني الراكد بين طيات الكيلومترات من الأرفف. مررت بحرص بالصينيين الذين أنحوا جانبا الابتسامة المهذبة (ابتسامة المرارة والمجاملة التي تدربوا عليها) وصاروا لا يفكرون سوى في أنفسهم بشكل زائد عن الحد). رحت أتأمل وجوه البشر الخائفة، الذين يتناولون من على الأرفف كتبا قديمة متهالكة. لا يمكن أن أخمن عمر الكتاب، فأرقام وتواريخ ومسلسل الكتب نقشت فقط بالأحرف الصينية.

رحت أراقب خلسة وجوه الصينيين وهو يمسكون بالكتاب من خلف أعمدة الأرفف القديمة والمزركشة ومن بين صور التنين والثعابين العديدة التي تطاردك في الصين في كل خطوة شأنها شأن الدراجات وعربات الحنطور والسيارات اليابانية الصغيرة. تصورت فجأة أن اللقاء مع الكتاب وأكوام الرموز المزركشة يسقط من على وجوههم طبقة واقية وكأنها المسحوق. وفي بعض الأوقات كدت أجن. فهذه الآلاف من الرموز الغامضة تبدو وكأنها أخذت من على وجوه قراءها جزءا من هويتهم. وكأنهم يتلاشون من أمامي ويتضاءلون ويتقلصون (فضلا عن أن أجسامهم بالفعل نحيفة وضئيلة) وكما لو أن

كتبهم تنتفخ وتنمو وتقوى. وكأن الرموز تنمو كالنباتات في فيلم عن الطبيعة بالتصوير السريع). عندها أدركت أن من يعطي ليس فقط هو من يكتب بل من يقرأ أيضا.

تماما مثل أبطال "بورجس" لم يفهموا كتابه "مكتبة العالم" فإن الصينيين رغم درجة تعلمهم لن يفهموا قيمة ثراء شارع "ليوليتشانج" بدون أن يخاطروا بفقد هويتهم.

وماذا عنا نحن الغرباء؟ هل سنفهم شارع "ليوليتشانج" ورسالته من القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد والقرن العشرين بعد الميلاد؟ ومجموعهم أربعون قرنا من الكتب والرموز...

جاء إلى هنا "ماركو بولو" ووقف على جسر في جنوب غرب بكين. غير أن ابن بلده"دانتي اليجير" لم يأت إلى هنا . لقد كتب "الكوميديا الإلهية" فقط بمساعدة مسيحية القرن الثالث عشر.

كتب لعوالم مختلفة.. يتشكل على جانبي شار "ليوليتشانج" في كل لحظة عالم مختلف، بتاريخه وأساطيره وعاداته ومعارفه وأحلامه. غير أنه يجب ترك التصوير والحديث باللغة الإنجليزية مع البائعات الصينيات.

أدركت فقط الآن وأنا في بيتي أنه يجب زيارة شارع "ليوليتشانج" كما تزور مدينة "شتيافتيتسكا كالفاريا". على مراحل، بيت تلو الآخر. سيرا على الأقدام. لكن يجب أن تكون

مسلحا بالخيال. تتخيل ماذا يدور في تلك الكتب التي لا نعرفها ولا نريد ولسنا قادرين على أن تقرأها حتى لو عرفنا ألف أو خمسة آلاف أو عشرة آلاف رمزا.

لكن ماذا سيبقى لنا؟

حاولت أن أفعل هذا في أحد المتاجر المدججة بالكتب ثم الثاني والثالث. تلك المتاجر التي غطاها تراب المطر وملأتها الرموز اللامتناهية. كان كل كتاب سحبته بحذر من على الرف وفتحته وكأنه بدأ يمتص مني عقلي ويسلبني إرادتي وفكري.

لم أتحمل وانطلقت إلى الخارج، نحو الشارع المبلط أحتمي بالشمس.

عدت إلى المطعم، إلى التقاطع عند بداية الشارع حيث يتفرع شارع "ليوليتشانج". بدأت أسمع صوت أزيز معدتي. كانت الساعة وحوالي الثانية عشر. وكانت "إيفا" مع الصغار ينتظرونني في السفارة حيث سنذهب بعد الغذاء مع الأولاد للاستحمام في حمام السباحة. أمامي العديد من الكيلومترات أقطعها بالدراجة تحت شمس الظهيرة حتى أصل إلى شرق بكين حيث منتزه "جيتان". فهناك تنتظرني عائلتي.

سألتقط آخر صورة للمدخل الشارع المزركش.

وقف عند مدخل المطعم ساعي شاب. وقف متحجرا لا يبالي. نظر من خلالي وكأنه ينظر

في مرآة سيارة. لا، مثل هذا لا يمكن أن أطلب منه شيء.

كانت الدراجة النارية "ياماها" التي كانت تقف على الجانب الأيسر قد اختفت. بالفعل حان وقت الرحيل. لكن من سيصورني؟

في الجهة المقابلة ظهر رجل أبيض يرتدي سروالا قصيرا ويتوجه ناحيتي على مهل. يحمل كاميرا وحقيبة صغيرة. كان بمفرده. يرتدي شريطة رأس بللها العرق، كان لونها بني ذات يوم. وبسرعة قمت بإغلاق حقيبة المستندات ودفتر الملاحظات والكاميرا. ثم أخفيت أظافر يدي المقصوفة بإهمال في جنبي.

في الواقع أنني شعرت وأنا أهرب من آخر متجر لبيع الكتب القديمة في الجانب الأيمن من شارع "ليوليتشانج" بوحشة غريبة. رحت اشكك في كوني موجود بالفعل في المكان. لماذا أنا هنا؟ وماذا لو أن وجودي هنا خطأ أو أنني فقط أتخيل ذلك، وأنني في الواقع أسير في شارع "لاورينسكا" في براتسلافا. رحت أشكك في هويتي.تملكني هذا الشعور الرهيب وأنا أسير بخطوات مترنحة على أحجار الشارع الضخمة، في هذا الشارع الغريب، شديد التناغم. وقد تحولت شمس الظهيرة إلى العديد من الرموز المضيئة الصغيرة محددة بقوانين علم الخط بخطوط ونقاط ،كما تحولت إلى تلك العناصر السبع التي يحدد الصينيون على أساسها وبدقة آلاف الرموز المختلفة التي تستخدم في تحديد

العالم وتعريفنا.

لقد كنت أنا نفسي هو ذلك الرجل الذي يحمل كاميرا في الجهة المقابلة. هالني الأمر وتملكني خوف دفين. توقعت أن يغمى على أو أصاب بنوبة قلبية (في الواقع أنا أعاني من ضغط عال نسيبا في الدم). أدركت أنني لم أعد أتواجد هناك حيث كنت منذ قليل وأن دراجتي لم تعد هى نفسها التي تركتها هناك قبل ثلاث ساعات. هرولت مذعورا على الرصيف في الاتجاه المعاكس، عند ناصية المطعم، لم أعد أشعر بقدماي ولا بجسدي. اختفيت بعيدا عن أعين الساقي الصيني ورحت أجوب ببصري بحثا عن الدراجة التي لم يكن لها وجود. بالفعل لم تكن موجودة.

ضاع مني قلبي ولم أعد أملك شيئا يدق في صدري.

عدت من جديد إلى الميدان الصغير وأنا عاقد العزم على أن أتضرع إلى نفسي (حيث تقف حائرة ومتعبة ولا تعرف ماذا سيحل بها) بأن أحاول أن أصور ما تبقى مني، أصور هذا الشبح، الصورة السلبية الباهتة، وألوان الماء التي ملأتها الغشاوة وخالطها رزاز المطر. أصور هذا الرجل الذي وطأت قدماه قبل بضعة ساعات أرض شارع "ليوليتشانج" الرهيب.

خاطبت نفسي، ومن باب الاحتياط باللغة الإنجليزية (أمر غبي ومثير للضحك).

وبابتسامة مريرة ضغطت على زر الكاميرا. وحدث الأمر.

رحت بعد لحظة أتابع نفسي وأنا أندفع للبحث عن الدراجة المفقودة. وبعد لحظة من التردد رأيت نفسي وأنا أفك الدراجة المتكئة على الحائط الخلفي لمبنى آخر مجاور شبيه بذلك الحائط الذي تركت عنده الدراجة بنفسي قبل عدة ساعات.

رأيت نفسي أندس في تيار الدراجات الصينية في شارع عادي وهو شارع "نانسين هو" وأتوجه ناحية الشمال صوب "البوابة السماوية". أردت أن أصرخ وأقول أنني لا يمكن أن أظل هكذا، بدون نفسي، بلا وجه، وحيدا. لكن صوتي ضاع مني وكأنني في كابوس كريه.

كيف استطعت أن أترك نفسي هكذا ، مهملة ومكبلة ومحاصرة في الميدان الصغير- عند مفترق الطرق في شارع "ليوليتشانج" الشهير ببكين؟ لم أعرف مطلقا كيف انتهى بي الأمر ومن وجدني ومن دمرني تماما ومحا أي وجود لي في هذه البلد.

حدث هذا في السابع عشر من سبتمبر ١٩٨٧ في مدينة بكين عند نهاية عطلتنا هناك.

لا، أنا لا أسخر من أحد. لكن هذا ليس بأدب، أو بالأحرى ليس كأدبنا الأوروبي.

كنت مازلت أحتفظ بصورتي عند مدخل شارع "ليوليتشانج" حتى عيد الميلاد وأريتها

لزملائي في بيت الأدباء. لكنها ضاعت مني في ربيع هذا العام عند انتقالنا من البيت.

في ذلك الوقت رحت أحكي لأسرتي عن الدراجة التي فقدتها وعن الظاهرة التي أتردد في تسميتها بفقدان الذات. التزمت الصمت طبعا. حيث لا زوجتي إيفا ولا ابنتي "الينا" ولا زوجها "ميلان" ولا حتى أحفادي لم يلاحظوا أنهم لا يتحدثون معي بل مع الإنسان الذي ظهر في وقت الظهيرة في بداية شارع "ليوليتشانج"، إنسان يشبهني ويتصرف كما أتصرف.

يمكنكم أن تقوموا بتحليل هذه القصة على الطريقة الأوروبية وأنتم تقرأونها. إن الكتابة تجعلني أفقد ذاتي. من الممكن أن تضيعوا تماما في شارع الأشباح الذي يبلغ أربعة آلاف وثلاث مئة قرن من الزمان. ولن يتبقى منكم سوى صورة خارجية خادعة. يبدو الأمر هكذا منطقيا تماما.

لكنني نسيت أن أكمل لكم قصة الثمانية الخالدين وخاصة أولهم وكان اسمه كما قلت **"تيجواي لي"** أي **"لي"** صاحب الصولجان الحديدي.

كان رجل من عامة الشعب. مواطن عادي، جاءه وحي من بطريرك الطائفة التاوية. وكرجل حظي بالإلهام استطاع أن يأتي بمختلف المعجزات.

فارقت روحه جسمه ذات مرة وهامت على وجهها. كان" **لي**" ينوي أن يتحد بروحه مع

جثة نحيفة لأحد المتسولين. بالفعل أراد أن يشعر كما كان يشعر هذا الرجل أو أراد أن يجبر مواطنيه المتقاعسين على مساعدة الفقراء. لكن وفجأة لمحت روح "**لي**" جسدها من أعلى بينما كان تلامذته يحرقونه من باب الخطأ. وهكذا فقد "**لي**" جسده. وظل طوال حياته يعاني كأحقر متسول، بوجه حقير ملأه الشعر ومعدة خاوية وقدمين كسيحتين متقيحتين. الشيء الوحيد الذي نجح فيه هو أنه تمكن من تحويل عصا هذا المتسول المصنوعة من الخيزران إلى صولجان حديدي.

لم يمنعه خطأه مع جسده من أن يصبح واحدا من الخالدين الثماني، بل استطاع مع الخالدين السبع الآخرين أن يعبر البحر مستخدما صولجانه كمجداف.

غير أننا ونحن في عصر الذرة نرفض التصديق بأن فقدان الجسد ليس بالطامة الكبرى كما يبدو الأمر من أول وهلة، شريطة وجود شيء آخر منفصل عنا وهو الأدب وشارع يسمى "ليولينتشانج".

# مدينة الملوك الحرة

**ذهب** لقضاء الإجازة بمفردة. وإن قلنا أن الوحدة بالنسبة للإنسان الشاب تعد حالة أزمة فقد كانت أجازة أزمة.

ربما شعر بالضيق من مثل هذا التفسير. فليس من الإنصاف أن نصف أيام الصيف التي نقضيها في مسقط رأسنا بأنها أجازة أزمة.

سارت الأمور كما توقع. المكان يعرفه منذ سنوات طفولته. كان في الأيام الأولى يشعر بسعادة وهو يتجول في الشوارع التي قضى فيها طفولته. يرتدي بنطالا طويلا. رجل متعلم ويحمل في جيبه حافظة منتفخة بالنقود. نام لساعات طويلة، فالأجازة التي يقضيها الإنسان بمفرده لا تقصر إلا بالنوم، ثم سار قبل الظهيرة في الشارع الرئيسي وهو ينظر إلى السائحات بإعجاب ابن البلد الساذج .. بعدها تناول الغذاء مع العائلة وقام بزيارة بعض خالاته. تحلى خلالها بالصبر الذي استمده من حمام أخذه بعد الظهيرة. بدونه لم يكن ليستطيع أن يتحمل زيارة للأضرحة مع خالته الثالثة، حيث راح يتعثر بشواهد القبور المبعثرة هنا وهناك وحمل الماء في الدورق بحماس حتى يروى زهرات الأستر لتظل رطبة ومزدهرة. في هذه اللحظة شعر بأنه مازال شابا.

عاد إلى المدينة في المساء وهو يحمل بين يديه ملابسه المبللة وفي عينيه علامات

الامتعاض. كان متعبا والجو بين الأسوار في المدينة بارد. لم يفكر يوما في شرب البيرة. دائما ما كان يفكر بأنه الآن يشعر بالملل وقضاء أمسية كهذه بدون امرأة أمر لا يعقل. في الساعة الثامنة والنصف خلا ممر المشاة من الناس ولم يبقي في المقهيين سوى رجال يشربون البيرة ويلعبون الورق وبعض السائحين.

كانت المدينة الملكية الحرة مازالت تعج بالحياة أمام غزو التتار. مازالت المصابيح تضئ الشارع الرئيسي ، كسوة الجدران تتساقط على الرؤوس. لكن مازال منها ما يكفي ليبقى قرون أخرى.

عاد إلى البيت الذي يبلغ سمك الحوائط بين غرفه حوالي تسعون سنتيمتر وارتفاع الأسوار المحيطة به أكثر من متر. حاول أن يبعد عن رأسه هذا الأمور وأن يمعن النظر لكي يرى حمام السباحة الطبيعي والأجسام السمراء التي تسبح به والتي لا يتعدى طولها المتر الواحد. كانوا يعيشون ويتنفسون. ببساطة ذكروه بالأجازة التي جاء من أجلها.

أغلق بوابة النافذة الثقيلة بحرص ثم وضع المفتاح في المكان المخصص له والذي يقع بجوار المدخل منذ عشرين سنة على الأقل. كان عمه قد توفي منذ زمن. إنه الإنسان الوحيد الذي يمكن أن يسأله عن عمر هذا المسمار البالي الذي يعلقون عيه المفاتيح. لم يكن في مقدوره أن يسأل العجائز في هذا البيت . فقد غالبهم

النعاس على الطاولات استعداد للنوم. جاوزت الساعة العاشرة بخمس دقائق.

استيقظ في منتصف الليل للحظة، كانت الغرفة مضاءة ونور القمر ساطع، يبتسم على سطح المرآة الملكية. كان منظرا مخيفا، الإنسان قد يصاب منه بصاعقة، فالمرآة لم تكن تبعد سوى خطوتين من الأريكة العريضة.

هذا الأمر لا يحدث في الأدب ، لكنه يحدث في الواقع. كان ضرسه يؤلمه.

لم يدهشه الأمر، لكن هذا لا يعني أن لم يكن مستاء
منه. كان يحمل في جيبه دائما أحد المسكنات المسمى "سيدولور"، لم يشعل المصباح الصغير على المنضدة بجوار السرير. لكنه تمكن بسرعة من التقاط حبة من بنطاله في ضوء القمر. صار الماء المتبقي في الكأس ساخنا وراكدا كالشريط العريض حول القمر.

أخذ الحبة، لكن شيئا لم يتغير.

انسل من تحت الغطاء تماما واتكأ على النافذة التي أصدرت صريرا. كانت تهب نسمة خفيفة في الخارج وحفيف أشجار لا يراها يدور في الهواء أسفل النافذة. انطفأت المصابيح في الجهة المقابلة التي يمكنه رؤيتها. بعد ساعة سيبدأ مفعول الحبة.

رفع سروال البيجاما وطأطأ رأسه من النافذة ثم قطف ورقة جوزة الطيب من الآنية. حاول أن يسويها. أراد أن يذهب لإحضار الكبريت من

على الطاولة. ليته يستطيع أن يتكأ على ورقة جوز الطيب. كل ما في الحياة له متكأ. الحياة تتشكل من مجموعة من الأمور المتخيلة التي تمثل سندا للإنسان. سندا بمعناها الإيجابي.

مازال أمامه يومان وبعدها يسافر إلى براتسلافا. كل شيء سيتلاشى ولن تبقى سوى بقايا ذكريات: حمام السباحة الصيفي والرمال الذهبية والزميلات في العمل وطاولة الرسم والمدير الجديد الذي لا يعرف بعد كيف تسير الأمور. هل عدت من الأجازة؟ ألم تسقط الأمطار هناك؟ لقد كنت في "ماماي" إنها رائعة يجب أن تزورها، أنت مازلت أعزب بالله عليك! ولن تجد مشكلة في السفر إلى هناك. لا تقل شيء. المشروع يجب أن يكون جاهز للتوقيع يوم عشرين في الشهر. حاضر يا سيدة "بينكوفا" الرسومات ستكون جاهزة يوم عشرين.

ضرسه يؤلمه، يرى في هذه اللحظة مهندسين المناجم وهم يستلقون تحت قباء متحف القلعة. من يدري، ربما يستضيئون بنور القمر. ربما أن هؤلاء الناس قد عاشوا بالفعل أو ربما أن أسناهم تؤلمهم. هذه الوجوه المصنوعة من الشمع في أطر ذهبية تخفي في ثناياها تراب نظيف لا تراه الأعين.

البيت الذي أنام فيه تحيطه أسوار ترتفع لأكثر من متر. هذا الأمر يشغلني كمصمم رسومات. الآن هو يفكر بالأمر بينما ضرسه

يؤلمه. البيت رائع. الجو فيه رطب حتى في هذا الوقت من العام، في شهر أغسطس . هنا بين الأسوار لا يمكن أن تشغل بالك بحرارة ليالي أغسطس.

في الخارج وخلف النوافذ يبدو كل شيء وكأنه خلفية متقنة لمسرح على خشبته ستائر حريرية. قلعتان بالمدينة، إنها حقا مدينه بمعنى الكلمة. تقدم للسائحين بسخاء كتيبات دعائية، واللوحات الورقية تلفت أنظار السائحين. رغم أنه نشأ هنا لكنه لم يدرك سوى الآن مدى الرفاهية وهو يرى من هذه النافذة قلعتين تشرفين على المدينة.

يرى أيضا من المنزل أسطح البيوت في الشوارع، تنتشر بينها حدائق صغيرة منحدرة. أسطح تنتشر وكأنها أوراق لعب على رمال داستها الأقدام. يخاف أن تفنى تحت شعاع ضوء القمر الرقيق.

لم يبن مدينة الملوك الحرة هذه مهندس معماري، بل بنتها القرون. يبدو هذا أمر جدير بالفخامة والإجلال، لكن ضرسه يؤلمه حقا، أكثر من السور البالغ من العمر ثلاثة قرون. يعتبر هذا السور في سلوفاكيا، بلد الأحياء السكنية الحديثة أمرا نادرا. يقف أمامه الإنسان مشدوها وحتى وإن
كان عصب ضرسه ملتهب.

لم يدخن السيجارة. لكنه الآن يرغب في ذلك. ليطرد بدخانها الألم وضوء القمر الذهبي. أراد

أن يبعده عن المرآة. فقد أغرق الآن ضوئه تمثال كليوباترا، هو تمثال ملون. كانت كليوباترا بالفعل جميلة، لها سيقان وصدر لا عيب فيهم، لم يقترب منها الثعبان الأخضر يوما ما. كان هذا التمثال يثير غرائزه وهو صغير، وكم تمنى أن يصبح هذا التمثال كبيرا. الآن صار على وشك الزواج والتمثال صغير جدا.

نظر في الساعة، كل شيء هامد.

- لا أكاد أسمع صوتا ولا أرى أحدا. إنها مدينة مناجم عاملة ورائعة. تنام في الليل، باستثناء بعض من يمارسون الحب. تعمل أثناء النهار. بعد الظهيرة فيأخذ أهلها في ملاحقة السائحين.

أمضى هنا الكثير من الأجازات بدون أن يجهد نفسه في قراءة الكتب، بل يمرن عضلاته في حمام السباحة. أما الآن فالكل نائم. إنها ليست العاصمة، كما يمكنك أن تتصورها في الليل وما يحدث بها من أمور غريبة ومثيرة، تسمع أحدهم يقوم بعمل حسابات، وآخر يعطي الإشارة للقطار أن يتحرك. أحدهم يعاشر زوجته أو يحرس ثكنة عسكرية أو يسجل برنامجا إذاعيا أو يرص الألواح الخرسانية في حي سكني جديد أثناء وردية ليلية.

هل هو نائم؟ بالتأكيد هو كذلك. ربما سيعوض ما فاته من النوم لمدة أسبوعين آخرين. حتى النساء الشابات هنا ينمن كثيرا.

يوفرون صحتهم. لكنه يقول لنفسه بيأس: لمن يوفرون صحتهم؟

ليس عندهم بيرة في المنزل. لا يوجد سوى مياه فوارة
معدنية ساخنة منذ مساء أمس، تبخرت منها الغازات، في ذلك اليوم كان الطقس حارا على غير العادة.

جلس في سطيحة المقهى والموسيقى تعزف من تحته. تجمع حول حلبة الرقص مجموعة من السائحين وشخصيات عامة من المدينة يناقشون خطة شركة المقاولات بالمنطقة وفضيحة "ميكولتشيتش" ومحاسب من إدارة المطاعم هنا في الفندق. كالعادة!

كانت البيرة باردة، أمر يبعث على الامتنان. فهي أفضل من البيرة في براتسلافا. على الأقل شيء من بين عدة أشياء يمكن الثناء عليه في هذه المدينة الملكية سابقا. - شكرا!. رد الساقي بأدب: "على الرغم من أننا مدينة صغيرة إلا أننا نحافظ على القواعد التي اعتدنا عليها". كان يقولها بجدية. وربما كان يقول هذا لكل من يظن أنه لا يشبه رئيس اللجنة الوطنية ويبدو أجنبيا.

لكن الساقي أخطأ بالطبع، غير أن هذا الكلام بعث السرور في نفس ضيفنا الذي يحتسي البيرة.

ثم راح يراقب سيدة سمراء البشرة ، طويلة. ترتدي فستانا أبيضا. كان باستطاعته أن يرى كل شيء من فوق سطيحة المقهى، حتى

صدرها العاري الجميل. ابتسم وقرر أن يراقصها عندما رأى شابا صغيرا يرتدي قميص "كاروهات" قد بدأ في مضايقتها، شاب أحمر الوجه، سكران. إنه يكره السكارى طالما كان هو شخصيا منتبها، غير ثمل.

في الواقع أنها كانت امرأة جميلة تبدو عليها ملامح النبل. امرأة من الحكايات الخرافية. كانت تتحرك براشقة كما يراها بنظره الضعيف. جاءت إلى المدينة مع مجموعة سياحية. في حلقة الرقص كانت سيدتان تراقصان بكسل رجال من المدينة الملكية السابقة. نزل إلى الطابق الأرضي وجلس على بعد طاولتين من حلبة الرقص. طلب كأس من النبيذ الأحمر الذي صار ساخنا، في حين اقترب منه "يانو مارتشيك" السمين، ربت على كتفه وقال:

- مرحبا بك يا **"بيبو"**، تعال اجلس معنا!

لكنه لم يستطع أن يذهب ليجلس معهم، فقد كان "مارتشيك" سكرانا وكان يجلس معه الشاب صاحب القميص الكاروهات. لم يتحمل أن يذهب ويجلس معهم.

جذبه نحو الطاولة وقال له:

- اجلس يا **"يانو"**.. ثم ناوله كأس النبيذ.

رد يانو: أنا سعيد أن ألتقي مع زميل الدراسة. لم أتمكن من أن انهي تعليمي ولهذا صرت حرفي. لقد صرت سمينا (وضع يده على بطنه المنتفخة وراح

يمررها عليها. بعدها أوقع النبيذ على غطاء الطاولة. إنه يرغب في النساء. غير أن عددهن هنا قليل ويعرفهم جميعا.

- "لا تكن متكبرا يا صديقي، سأشعر بالإهانة إن لم تأتي وتجلس معنا"..

أجبته بهدوء قائلا:

- شكرا، أتمنى أن تكون أمورك كحرفي على ما يرام. سمعت أنك بعت دراجتك النارية وسوف تشتري سيارة "أوكتافيا" قريبا. حتى وإن لم تشعر معها بالسعادة فلا تشغل بالك، فأنا أيضا غير سعيد.

نفذ منهما الشراب. راح "**يانو**" يتهادي في مشيته ثم خبط صاحب القميص الكاروهات علي كتفه، أشار إليّ بالجلوس بإيماءة وعيد. عندها علمت أن صاحب القميص الكاروهات يسكر على حساب "مرتشاك". توجت إلى المرأة صاحبة الفستان الأبيض.

كانت كما رآها من بعيد، ترتدي فستانا أبيضا ناصع البياض مثل حبة المهدئ "سيدولور".

رغم كل محاولات الكتب الحديث عن العادات الاجتماعية ودورات الرقص الجماعي في "مركز الثقافة والاستجمام" فدائما ما يكون الرقص فرصة جيدة للتعارف السريع.

كانت تدنو مني. الأمر الذي دل على حالة من الغربة عند كل منا. شخصان غريبان في مدينة أجنبية يقتربان تماما بجسديهما من

بعضهما. كان حوارا طفوليا، بدد التصورات الجميلة التي صنعها الفستان الأنيق.

- هل أنت ستبقى هنا لمدة طويلة؟
- لا، بعد يومين سأغادر يا سيدتي
- أجازة؟... لنسرع وتيرة الرقص. وأنا لست مدام.

أومأت لها وأنا لا أعرف السبب الذي دفعني لذلك. كان شعرها رائع وفي حالة جيدة. فقد كانت أخته تعمل في محل كوافير لذلك هو يفهم في هذه الأمور.

- وهل أنت هنا في رحلة؟... يا آنسة؟
- هل تريد أن أخبرك بالأمر؟

في هذه الأثناء توقفت الموسيقى.

- هذا الشاب الذي يرتدي قميص كاروهات قام بمضايقتك...
- شكرا أيها الفارس، لقد أنقذتني.

قال في نفسه "أي خدمة!" ثم راح ينظر إلى الكأس المقلوب والذي سال ما به بسبب غضب "يان مرتشاك"

بعد الاستراحة كانا أول من ظهر على الحلبة وواصلا لرقص.

- تخيل أنني أعرفك أيها الشاب!
- أنا لست من المشاهير... هل تستطيعي أن تصممي أسوار خارجية وعوارض؟
- لن نتكلم في هذه الأمسية عن العمل... أنا أعرفك. كان عمرك عشرة أعوام و...

- هل كنا عاشقين؟

شعرت أن ما قلته كان أحمقا وغير لائق. فالمدينة صغيرة جدا. راح الآن يفكر مليا ويتصور زميلاته الغير مهندمات في الدراسة ذوات الضفائر... يا إلهي! يالها من رائحة جميلة تفوح من شعرها، كما أنها ترقص بمهارة...

- أعرف أيضا والديك وأتذكر كذلك عمك
- لا يمكنني أن أبادلك مثل هذه المعلومات
- لكن يمكنك أن تراقصني. هل أعجبك؟...حقا لا تتذكرني؟

ومن جديد عاودت السؤال:

- متى ستغادر البلدة؟ بعد أربعة أيام؟ بعد أربعة أيام فقط، ومر عليك عشرة أيام هنا. كادت أيام أجازتك تنقضي. خسارة.

أصيب بالإحباط، فهى إذن ليست سائحة وكل من في البلدة يعرفها. كما أن أهل البلدة لديهم ذاكرة قوية جدا. غدا ستراني مع امرأة أخرى. لكنه ابتسم لها. فقد كان يشعر بالسعادة من وجوده معها وكانت تعرف ذلك.

لا يتذكر المزيد عن تلك الليلة الراقصة. لا يتذكر سوى فستانها الأبيض الناصع كحبات دواء "سيدولور" وشعرها. كل هذه أمور معروفة.

تنتهي الحفلات قبل منتصف الليل. فالمبكرون إلى العمل يظهرون في أرجاء

المدينة. منهم من يذهب ليستقل الحافلة لتوصله إلى القرية المجاورة.

وقف أمام فندق "جراند" وراح يتعجب، كيف أن كل الأمور تسير بلا مشاكل.

عرفته زوجة أخيه على امرأة طويلة تكبره في السن قليلا. راح يتفحصها بعناية. ليس سيئة تماما لكن المظهر لا يتفق دائما مع الجوهر.

سارت "تريسكا" بجوارهم، لم تكن تضحك مثلهم وكانت تأخذ كل شيء بجدية. لكن يداهما التقيتا صدفة. كانت مجرد ليلة صيف هب عليها موجة نسيم جعل شعرها يتطاير. لم يستطيع أن يشعر بالحب تجاهها ولا بأي شيء مشابه.

انتظر بملل حتى يعبرا الشارع الرئيسي الطويل. وأمام بوابة البيت سألته صاحبة الفستان الأبيض أن يمسك حقيبة يدها حتى تفتح البوابة. إنها من نوع البوابات العملاقة وكأنها في قلاع محصنة. "شكرا، كانت ليلة جميلة، خسارة أنك ستغادر البلدة، تذكرني في براتسلافا! مع السلامة!" ثم اختفى الجسر النسائي المعلق في ليل أغسطس يصحبه هدير وخشخشة سلاسل صدأة.

انصرفت "تريزكا" فجأة وسارا وحدهما حوالي خمسة دقائق في شارع منحدر. ولو أنها لم تسأله إن كان مازال يتذكر من أيام الطفولة مكان المغسلة لصمتا تماما.

كانت مدينة الملوك سابقا مهجورة. ولأول مرة في حياته يشعر بالسعادة بأنه ينتعل صندلا،

نعله مطاطي. لا يصدر صوتا وكأنه غير موجود، وكأنها تسير بمفردها، بحذائها الجميل على طريق حجري من العصور الوسطى، وأحجار مقعرة ضخمة.

- أحقا لا تتذكر المغسلة، حيث كانت أمي تعمل بها ستة عشر ساعة يوميا؟

توقفت عند بيت من طابق واحد محاط هو الآخر بسور يبلغ ارتفاعه متر تقريبا، له بوابة مقنطرة. لم تطلب منه أن يمسك حقيبتها، لكنها وبمهارة فتحت البوابة الضخمة التي لم تصدر أزيزا. عندها شعر بأن عمره ستة أعوام ويشم جيدا من خلف البوابة رائحة المغسلة المميزة وكيماويات التنظيف ويرى في فناء البيت براميل خشبية متهالكة بها محاليل وألوان مثيرة تفسد الأقمشة والملابس البيضاء.

كانت تقف بالقرب منه وأدرك أن ما يشمه هو رائحة شعرها.

تأرجح في مكانه في النافذة وشعر بأن "سيدولور" بدأ يأتي مفعوله. لكن رغم ذلك لا يستطيع أن ينام. فالقمر عالق في السماء والمدينة تبدو وكأنها من إحدى الأساطير. كان يشم رائحة شعرها قادمة من مكان ما أسفل القلعة.

أمسك بيدها وضغط على أصابعها وراح يفكر، ماذا تفعل هذه الأيدي أثناء النهار، وماذا فعلت أمس واليوم وماذا ستفعل بعد يومين بعد أن يغادر المدينة.

واربت البوابة وصارا تحت سقف بوابة المغسلة المقعر الضخم العالي. سار بجوارها حيث كانت يدها في قبضته. ومن أسفل البوابة راح يمعن النظر في أروقة البيت وفناءه المربع الواسع.

كانت تراقبه وسرعان ما اتكأت عليه.

همس لها قائلا: إلى متى ستطول لحظة الوداع هذه؟ كان يعرف أنهما سيتعانقان ثم تختفي تحت الجسر.

فاجأه ما يراه غير ذلك، إنها لم تنصرف وهو أيضا.تجول بنظره من خلف كتفها في فناء البيت. هناك خلف أسوار البيت يرى ضوء مصباح خافت في أحد الأركان. راح ينتظر من سيظهر من بين ظلمات في منتصف الليل. يجب أن أنصرف عائدا إلى البيت. فالكبار على وشك أن يستيقظوا وأنا أتسلل إلى غرفة النوم، أتناول زجاجة المياه المعدنية بجوار سرير أبي.

شعر بالاسترخاء وأراد أن يتجه نحو البوابة وأن يصحبها معه ليتكأ معا على خشب هذه البوابة

- هيا بنا نذهب لتناول القهوة!... لكن لا تقولي لأحد!

أسدل عينيه وهى تمرر يدها عليه وتأخذ بيده ثم تفتح بابا زجاجيا في أحد الأركان ونزلا على درج لولبي.

- بهدوء من فضلك!

عبرا شيئا يبدو من خلف الستائر وكأنه مطبخ أو صالة رقص. أغلقت الباب بالمفتاح من خلفها بحرص شديد . ضمها إليه أكثر . شعر بموجة خجل شديد أغرقته تماما. لم يكن أمامه سوى أن يجففها بموجة من الحنان والدفء الغير متوقع.

جلس في الثوان التالية بجوارها على أريكة عريضة. مصباح صغير يضيء المكان. جلس في منتصف الأريكة، أمامه باب زجاجي مغطى بالستائر الثقيلة يقود إلى غرفة تنام فيها أمها.

أهلا بك! – رحبت بي بصوت عال ثم فتحت خزانة البار التي أصدرت ضجيجا. أخرجت منها إبريق به زجاجة نبيذ عليها سدادة، ثم صبت الشراب في كؤوس عتيقة. لم يسألها عن الشراب، فقط راح يشرب. اهتزت يده وتناثرت قطرات الشراب على فستانها. ضحكت وقالت: لقد صار الفستان مجعدا تماما وعلى أية حال سأضعه في الغسيل غدا. في صحتك! في صحة أجمل يوم في حياتي.

شرب كأسين بسرعة وعلى التوالي. أخذ يراقب بريبة الباب القصير ذو الستائر الثقيلة وصرف نظره عن فستانها. فقد كان يخاف على نفسه.

كان الصمت التام يملأ الغرفة. ستائر النوافذ مسدلة تماما. لا يسمع صوتا سوى صوت أنفاسها الذي يكاد يراه مع ارتفاع ثدييها بنتظام. توقف عن الشرب.

سألته: ماذا تقول عني؟

لم يجبها بما كان يعتقده، لكنه اقترب منها وأحاطها تماما بذراعيه. كانت ثقيلة، أثقل مما بدت وهى ترتدي الفستان. هذه لم تكن زميلتي في المدرسة يوما ما. إنها كثمرة ناضجة في شهر سبتمبر.لم تضع يوما ما أشرطة على شعرها.- أنت جميلة. لم أرى امرأة في جمالك من قبل ولم أشعر... وراح يسترسل في الكلام بهدوء شديد وعلى مهل وهو على قناعة مما يقول.

شعر بدوار في رأسه ورأي أنه يجب أن يتماسك حتى لا يكون عديم الجدوى.

مسحت على وجهه وقالت: أنت لا تعرف شيئا. كل عام وأنا أنتظر زيارتك. كنت أراكم أيها الشباب وأنتم عائدون من كلياتكم في براتسلافا و"كوشيتسا". أما أنا فلم أذهب إلى المدرسة. عقلي أبيض كزهرة السوسن. أتوارى في ظل المغسلة التي كان والداى يمتلكانها. اشرب يا عزيزي، اشرب! ولا تكذب على وتقول أنني أجمل النساء. اشرب كما تشاء وسأكون في انتظارك. لا يهمني رأيك ولا شعورك نحوي وأنت لا تعرف كيف تفكر.

- لا أعرف

يحاول الآن أن يستوعب كل ما يحيط به في تلك اللحظة. أراد أن يصرخ. راحا يتلاعبان بالكلمات كالأطفال. أجمل امرأة. أجمل امرأة. الجو هادئ خلف النافذة. أجمل امرأة.

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. توقف كلاهما عن النظر إلى الباب المغطى بالستائر الثقيلة. نهضا واقفين يقيسان طوليهما. تناوبا الجلوس والوقوف، لامس كل منهما الآخر وتهامسا بكلمات لا معنى لها.

- لا تقولي لي كيف كنت وأنا طالب، حسنا؟
- من الجيد أنك لا تتذكرني. أما الآن فأنت معجب بي... قل ورائي – أنت معجب بي جدا... وكرر ما تقول.

استلقيا متجاورين ولم يشعرا بالوسائد المتهالكة فوقهما. كانت كمزهرية عصرية بعنق ضيق وأشكال لا يمكن وصفها. أين تضيق. كانت تلك الأشكال في النهاية هنا، أشكال لا يمكن تبديلها أو إفسادها. كانت هنا وتخصه هو بلا شك. كثير من الصياح والقهقهة. أراد فجأة أن يدخن سيجارة، لكنهما كانا هائمان فلم يقوّ على ذلك.

اعتدلت فوق الوسادة المهلهلة

- ماذا سنفعل غدا؟

نظرت بخوف لكن سرعان ما انتشرت دوائر الخوف فوق السطح ثم استلقت من جديد وأغلقت عينيها. ومن جديد راحا يتحدثان وكانا على ثقة بأن المراد سيتحقق
قريبا.

- هل ستلحقينني في برتسلافا؟

التقط دفترا وأخرج منه ورقة. أراد أن يكتب رقم هاتفه في مكتب التصميمات، الدور الرابع في اليمين، الباب قبل الأخير. ستجدينه بسهولة.

راحت تكرر وتقول- لن تغادر، لن تغادر. وقد نسي كل ما دونها، حتى حبات السيدولور. لم يكن هناك سوى هو وهى.

- كم عمرك؟
- خمسة وعشرون

لم يسألها بدوره عن عمرها. كانت قوية وهشة كالمزهرية وكأمهات المستقبل.

- عمري ستة وعشرون. أيضايقك هذا؟

جذبها لتنهض، ووقفا متجاورين من جديد. فتحت الباب بهدوء ودخلا إلى مكان ما في المطبخ. كانا يشعران بأن الظلام صديقهما. انصرفا خارج الحجرة غير مدركان بما حولهما. ثم جلسا على أحد الصناديق الذي سقطت منه بطانية كما سقطت من جيبه المفاتيح. خلف النافذة في ساحة البيت يضيء مصباح صغير وقناطر هامدة. أروقة مقنطرة معظمها مطمور في الأرض ونائمة في القرن العشرين.

لم يريا ما سواهما. راحا يقولان بأن هذه هى أروقة مقنطرة. لا شيء آخر يلمع خلف الستائر. موقف تثريه غرائزهما التي تمكنت منهما تماما في هذه العتمة. شعر أنه لن يحب أحدا في العالم إلى هذه الدرجة، شعور واضح كالضوء. ضوء وكأنه معجزة من معجزات علماء الطبيعة.

ضوء يتدفأ به وتسير به الآلات وتحل به المعادلات.

كان يشعر أنها تفكر في معنى اللحظة.كيف أن العالم عبارة عن نهر طويل لزمن ممتد ولحظات غير متوقعة. تتوقف ويتوقف عندها التفكير. أين يعيش وكيف يعيش؟ من يعيش ومتى يعيش؟ في هذا التدفق الكبير، في تلك اللحظات القصيرة؟ عرف بالفعل في هذا التدفق الهائل أنه يجب أن يؤمن بما يشعر به. إن مايراه فضلا عن شعرها هو استسلام منها لا حدود له. كيف للإنسان أن لا يتنكر للحيوانات ويتنكر للبشر؟. لكي لا يخجل الإنسان من نفسه، يجب أن يكون في خدمتها وهو يشعر بأنه مدين لها طيلة حياته إلى أن يخرج كل ما عنده في هذه الأرض: كل ما عندي بعيدا عن العقل والمدارس والملابس، بعيدا عن الأسوار والزمن. كل ما يمكنني أن أعطيه...

يبدو أمام نفسه ضعيفا على هذه المهمة الكبيرة. فجأة وعلى غير المتوقع تعقد كل شيء. فليس الأمر مجرد أن ينام ثم ينصرف بهدوء وهو يفكر إن كانت هى الأخرى سعيدة بهذا.

هدوء، تتبدى أمامه حدود طاولة المطبخ. ربما ينهار العالم. أو على الأقل العالم في هذه المدينة وفي هذه اللحظة. عالم بدون قمر ساطع. هل ينتابها هذا الشعور هى أيضا ؟ هل تفكر في ذلك؟ هل يمكنها أن تنام الآن، أيمكنها هذا؟

كلاهما يعرف أن الدقائق تحمل معها تراجع، لكنهما ليسا خائفين. لقد حدث ما كان متوقع، ثم يصفف الشعر وتسوي الملابس. قبض على المفاتيح التي سقطت من توها. فجأة سألته بهدوء:

أيمكن أن تتزوجني؟ إن لم تتمكن فلا بأس، فسوف
أتزوج في شهر ديسمبر. قبل أعياد الميلاد. ولن أرسل لك دعوة. هل ستغضب مني؟

انقض كل منهم على الآخر وتبادلا القبلات ومرة أخرى تجردا من ملابسهما. فطبيعي أن يحدث هذا وإن لم يكن حدث بالفعل. فالسبب في ذلك هو هذا الضرس الذي يؤلمه وأجازة يقضيها بمفرده.

قال بتلقائية وهو يرغب في الابتسام: - أنا لن اتزوج

- لماذا الناس هكذا لا ينتظرون؟
- ينتظرونك؟ ينتظرونك حتى تتنازل وتتعطف على الفلاحات؟ أليس كذلك أيها الرجل صاحب التعليم الجامعي؟

أمسك بها ووضع يده على فمها: أنت غبية، لقد كنا نأتي هنا على مدى أربعة أعوام وكنا نخاف منكن، أنتن الفتيات. لقد تغيرتن، صرتن قويات ونبيلات حتى صرنا نخاف منكن، نخاف من زوجات المستقبل، ملكات المدينة ومديرات المصانع وكيلات للوزارة وأمناء عموميين في

الحــزب ومراســلات صــحف وأســاتذة فــي الجامعات وطبيبات استشاريات.

- كفى!

وضعت رأسه بين راحتيها وراحت تقول: كنا نحلم بكم، أنتم أبناء هذه البلدة ولكن لن تعودوا. شيء ما هنا يفسد. الناس يأتون إلى هنا بسياراتهم ويفرغون الناس منها بالقوة. بأوامر من الحزب يأتي إلى هنا شباب، يعملون في منطقة نائية وإلا فإن هذه الحوائط قد تسقط بدون أناس طبيعيين.

- وهل مثله إنسان جيد؟
- إنسان طبيعي. يريد الكثير وقوي... سوف نسخر

منه معا. سوف يكون عندنا سيارة وأموال.

ثم ابتسمت وأضافت:

- ألا تتذكر مغسلتنا؟
- لقد عشت فيها أجمل...
- انتظر!

مسحت فمه بالمنديل ثم بللته من ماء الصنبور الضعيف الذي أيقظ بهديره البيت البالغ من العمر مئة عام وجعل أروقته تهتز من تحتهم.

- أين تعملين؟ غدا...
- عنوان عملي هو مبني "بورجر" بجوار مدينة "نوفي ظاميك"، أعمل أمينة خزانة في إدارة المدينة.
- وهو يعمل هناك أيضا؟

- لا، لكنه يقوم الآن هناك بعمليات مراجعة شاملة. تعال إلى هناك إن أردت! لن يزعجني قدومك.

تبادلا القبلات وربما لآخر مرة.

كان الدرج متآكلا ومقعرا في منتصفه. سرعان ما ضمته في أحضانها. سمع ضجيج صوت المفاتيح. سار الطريق أمام بوابة البيت طويلا، ربما امتد لعشرة أمتار ولا يرى شكل القنطرة. تسمرا في مكانهما واستغرق قطع مسافة العشرة أمتار حوالي الساعة. لم يكن يأبهان للأمر.

- - اعلمي أنني سأحضر غدا! فبعد غد سوف أذهب في رحلة، عند البحيرات.
- لكنه سيكون هنا غدا.

كان عليه أن يوارب النافذة قليلا. فالمطر بدأ يتساقط وزهرات جوزة الطيب راحت تهتز.

بدا جسم كليوباترا هزيلا وصار الثعبان كحبة الخيار الهزيلة. سيتحسن الجو في الصباح وسوف يتمنى أنه يعرف سببا يجعله يعتقد أن الحياة في سن الخامسة والعشرين يمكن أن تكون جيدة.

ربما تكون هذا الأسوار التي يبلغ ارتفاعها متر مجرد لعبة بريئة في يد المدينة الصغيرة.

استلقى بهدوء على السرير وراح يفكر فيها بعمق. كان على قناعة بأنه سوف يتعقبها بأفكاره. فالمسافة إلى أسفل القلعة ليست بالبعيدة. ويكفي لاقط هواء تلفزيوني عادي.

لا، بالفعل لم تكن هذه أجازة أزمة في مدينة الملوك الحرة هذه.

أخيرا استطاع أن يبتسم. إن أقراص "سيدولور" بيضاء ورائعة. الأسنان بيضاء، تنام على فتنة تتنفس مرح وسعادة المغرمين.

مكسيكيا

ربما كان المسيح

**خطر** لي هذا وأنا أقف بين اللوحات. تمتد سلالم أهرام "**ماي**" على خلفية طينيه لونها بني مائل للاحمرار. ينتشر من حولها عدد من السفراء مع زوجاتهم، وسعاة يحملون مقبلات غريبة على الصوان ومجموعة من الصينيات بابتسامتهن المتحجرة وبعض من فنانينا التشكيليين وهم يردتدون معاطف متسخة. كان بينهم أيضا رؤساء الجمهورية. أحدهم رئيس سابق في عجلة من أمره لحضور حفل موسيقي بدار الأوبرا. الثاني ربما يكون الرئيس التالي لكن مؤهلاته لا تمكنه من ذلك. كان يبتسم دون أن ينظر في عيون الحاضرين. وسط كل هذا تتحرك النساء بوجوههن العجيبة. نعم عجيبة. لأنك لا يمكن أن تتعرف عليهن بسهولة. ورغم ذلك كن يضفين على الجو نوعا من السريّة في هذه الذكريات من المكسيك. كن يتهامسن فلم أتمكن من معرفة اللغة التى يتكلمن بها.

كانت "**نينا**" ترتدي فستانا أحمرا وشالا مكسيكيا أصفر ملقى على صدرها العاري وتتنقل بين مجموعات الواقفين. قبلت الفنانات التشكيليات الشابات من سلوفاكيا والسيدات أعضاء البعثة الدبلوماسية.طال وقوفي في الردهة الجانبية أمام مجموعة اللوحات المربعة والمتشابهة والتى تصور آثار دمار. كانت تعبر بوضوح عما قرأته لاحقا في الكتالوج وأنا

أنتظر الحافلة على المحطة.. **"نينا"** تطوف العالم بحثا عن موطن لها. تبحث عنه بابتسامة، فهذه الطريقة الآمنة بالنسبة لزوجة رجل دبلوماسي. ثم جاءت سيدتان يابانيتان. كانت إحداهن قصيرة قليلا وفائقة الجمال. راحت تمعن النظر إلى الصورة الثانية. فقد أعجبتني أنا أيضا هذه الصورة. ثم نادت على أحد الرجال لكى يأخذ لها صورة عند الحطام المصور بين الأطر. تراجعت بأدب وواصلت جولتى.

تذكرت شرائط الفيديو عندي في غرفة الاستقبال ومشاهد من الأهرام على شبه جزيرة "يوكاتان" حيث تجولنا في حرارة الجو أثناء رحلة انطلقت من الفندق المكيف. سمعنا شرحا عن ألعاب الكرة التي كانوا يقتلون بعضهم فيها. لقد أحضرت **"نينا"** كل هذا إلى القصر الذي بني على الطراز الباروكي في براتسلافا القديمة بمساعدة السفارة التى يعمل بها زوجها وبالتعاون مع رعاة من شركات الكمبيوتر. **"نينا"** مواطنة أمريكية سمراء الشعر، لا يمكنك تخمين عمرها. بالنسبة لي كانت شابة كما ذُكِر في الكتالوج المكسيكي.

لقد اهتز جسمي. من الوهلة الأولى تذكرت **"إيدنا"**. أنهما متشابهتان بالفعل. لكني اليوم لا أستطيع أن أتذكر وجه **"إيدنا"** ومازلت أشعر بالذنب تجاه هذه المرأة رغم مرور اثني عشر عاما. كانت تعزف لى عندئذ على البيانو في

أحد أركان الصالون. همس في أذني مستشارنا التجاري قائلا:

- إنها مدرسة موسيقى، تحب بلدنا. ودائما ما ندعوها عندنا في المناسبات. أتعجبك؟

كانت تعجبني. ركبت معها في سيارتها الجديدة ونحن عائدين من المرقص في فندق "كامينو ريال"

(هل هذا معقول؟! نعم، معقول يا سيدي. هنا في المكسيك يذهب حتى من هم في سن الستين إلى المرقص!)

- ألست جائعا؟ هل تذوقت البصل الأخضر المشوي؟

توقفت ثم أخذتني من يدي. ورحنا نتنفس هواء "سيوداد دي مكسيكو" الساخن.كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل منذ زمن. أطعمتني الـ"تاكوس" الهش مع بصل مقلي ذو سيقان طويلة.

- سأحاول أن أصنعه بالبيت بعد عودتي

ضحكت "إيدنا" وهى تنظر إلى البائع في الكشك وقالت:

- لن تتمكن أبدا من ذلك. تذكر جيدا أنه لا يمكنك أن تقلد المكسيك.

كانت هذه أول مرة أزور فيها المكسيك. أرسلتنا الوزارة لكي نقوم بإعداد قسم سلوفاكي خاص في معرض الكتاب. **"إيدنا"**. كيف لا

يمكنني أن أتذكر تفاصيل وجهها؟ وبدلا من ذلك رحت أتذكر "**فرانسيسكو**"

- يبدو كالمسيح

هكذا همست في أذني إحدى السيدات عندما تعرفت على "**فرانسيسكو**" في حفل العيد القومي المكسيكي. قدمته لنا السفيرة على أنه الممثل الأول لها. ثم دعتنا بسرعة إلى الحديقة المزينة.

عقبت على كلام إيفا قائلا:

- بل إنه يشبه القديس فرانسيس من مدينة "أسيسي"

كانت سفيرة الولايات المتحدة المكسيكية سيدة ذات قوام طويل وبنية قوية وشعر ممشط داكن اللون. لها ابتسامة باردة وقورة ومتحفظة . لا تشبه الدبلوماسيين من دول أمريكا اللاتينية. تسير ومن خلفها رجلان. أحدهما هو زوجها القصير ببطنه الكبير وهو خبير في القانون المدني والآخر "**فرانسيسكو**" قليل الجسم ونحيف وذو لحية سمراء. وجهه يشبه صور "الجريكو" أو وجهه مسحوب مثله. كان يبدو عليه الغضب والانزعاج. الأمر الذي أثار في الجميع شعور بالذنب تجاهه.

لم أجد سببا يجعلني أقترب من فرانسيسكو. غير أن تكرار المناسبات في السلك الدبلوماسي الكبير في أوتاوا جمعني به مرة كل أسبوع تقريبا. كانت سفارة المكسيك في كندا تضم العديد من الدبلوماسيين وكانت السفيرة تنتقى

فقط بعض المناسبات لتشارك بها. لذلك كنت ألتقي بممثلها تقريبا كل أسبوع. يلقي عليّ التحية بطريقة لائقة ثم يتفحصني بعينيه الحادتين. أراد أن يجاذبني أطراف الحديث ولكني في الغالب كنت أتهرب منه..كنت أجد صعوبة في الوصول إلى الزملاء من منطقة وسط أوروبا الجميلة والوقوف على كل ما هو مهم لنا في المركز في براتسلافا. فلم يكن هناك ما يمكن أن أتحدث عنه مع فرانسيسكو. فرغم أن معلوماتي عن المكسيك مازالت صغيرة ( "إيدنا"، كشك الكتب السلوفاكية الملتهب من حرارة الشمس في قصر "مينيريا" بدون تكييف. دافيد بروندوش، القس البروتستانتي، وهو مواطن سلوفاكي، أوصلني في البداية بسيارته إلى أحياء "سيوداد دي مكسيكو" الفقيرة ثم إلى مدينة "تولا" حيث تماثيل التوليكيين الحجرية البغيضة وتذكرة العودة إلى فيينا وانقباض في المعدة) .. لكن لا يمكنني أن أسأله عن إحدى مدرسات الموسيقى أو القس السلوفاكي حامل الجنسية الأمريكية.

نظر إليّ بعينيه الغاضبتين الساخطتين وقال:

- تقول حضرتك أنك زرت المكسيك يا سيادة السفير.

نطق كلمة "السفير" وهو يصدر جلبة وكأنها صادرة
من بندقية ملقاة بعد الاستسلام.

- أخبرني! هل أعجبتك الإقامة عندنا؟

كانتا ذراعاه نحيفتين ورقيقتين كما بدتا لي. لكنه جذبني بقوة واضحة وأخذني من بين مجموعة السيدات الأفريقيات اللواتي ترتدين ملابس مزركشة. كنت في الواقع أحاول أن أشرح لهن أين تقع مدينة براتسلافا في أوروبا أو على الأقل أين توجد فيينا.

- هل شاهدت حضرتك مدينة "تيو تيهواتسان"؟ هرم الشمس وهرم القمر؟

أومأت له بالإيجاب. لقد أخذنا إلى هناك دافيد في أول أسبوع بعد أن أغلقنا الكشك في معرض الكتاب. وهي تقع على مسافة قريبة من العاصمة.

- وماذا تقول فيها؟
- إنها رائعة. "طريق الموتى" عريض كالطريق السريع.

حاولت أن آكل المقبلات حتى لا يشعر الرجل المكسيكي بالإهانة. كانوا يحضرون الأسرى و"المختارين" إلى هناك حيث يقوم الأزتيكيون بفصل قلوبهم وهم أحياء ويضعونها على مذبح الثعبان المكسو بالريش أو مذبح الشمس، لا أتذكر بالتحديد.

- كان الجو حار جدا هناك والشمس تلفح أيدينا ومؤخرة عنقنا

طرف **فرانسيسكو** بعينه وقال:

- إن شمس المكسيك تجفف كل شيء حتى الدم.

علت ضحكات سيدات أفريقيا، أما أنا فقد انتهى أمري بلا جدال. أمسكني فرانسيسكو من كتفي ثم جذبني بودّ بعيدا عن مجموعة النساء واصطحبني إلى أحد الأركان. كان الساقون يقفون هناك مصطفين بلا حراك في زيهم الأبيض.

- يبدون مثل أهل أطلانطا.. ماذا تشرب؟ .. نبيذ أحمر أم أبيض؟

أمسك **فرانسيسكو** بكأس النبيذ الأحمر.

- من الواضح أن هذا لم يروق لك يا سيادة السفير. إن انتزاع القلب بسكين زجاجي أمر لا يمكن أن يروق لأحد.

كانت لغته الإنجليزية صارخة. مليئة بحرف الراء الذي ينطقه بنبرة كما نفعل عندنا. لكنها كانت مفهومة.

- اسمح لي بسؤال سيادة السفير. هل أنت مؤمن؟
- نعم، أنا مسيحي. عندنا في سلوفاكيا... أنا كاثوليكي

خيّل لى أن عينيّه أظلمت وأننى لو طرحت عليه نفس السؤال لكان أمرا يدعو للسخرية. فلا يمكن أن تسأل المسيح إن كان مؤمنا بالله.. أنقذَني من هذا الجرف القاتل رجل ذو ابتسامة مرحة وهو زميل من جمهورية سلوفينيا.

- **ماريان**، أرسل السائق. فلدينا الكثير من المراسلات التي تخصكم.

- وأنت كذلك. وجدث اليوم على الطاولة خمسة مظاريف موجهة لسلوفينيا.

رحنا نشتكي كيف أن أمرنا لا يهم العالم في شيء. ثم شربنا الكأس بسرعة. وعندما التفتّ حولي وجدت أن **فرانسيسكو** قد اختفى بهدوء في الصالة وكأننا عند بحيرة طبرية. لم أتوقع أن اعترافي لرجل مكسيكي بديانتي (يعد هذا الأمر في العالم الانجلو سكسوني من الأمور الشخصية جدا وأن السؤال والإجابة عن هذا الأمر يعبر عن عدم اللياقة) سيكون بداية للتغيير. سيكون بمثابة حجر ينفلت من الهرم ويتسبب في عدم استقراره.. رحت أطالع في كتاب البروتوكولات الدبلوماسية الكندية مقالة عن سفارة الولايات المتحدة المكسيكية. وجدت هناك ثلاثين اسما: ليناد، ماريا تريزا، اليسا، ماريا لويز، هورتينسيا، ديانا، ...النوسو، انريكيو، جيراردو، رودريجو، جورجي. كان هناك شخصان يحملان اسم المسيح. لكن لا أحدا منهم يشير إلى المسيح الحقيقي. كان المسيح الحقيقي هو **فرانسيسكو**. عبثا رحنا نحاول أنا وزوجتي إخباره بطريقة غير مباشرة أننا نداوم على زيارة الكنيسة في أيام الأحد.

- إلى أين تذهبون؟
- إلى كنيسة القديس "بطرس". نكون هناك عند الساعة العاشرة. يذهب إلى هناك أيضا زميلنا من النمسا وكذلك مدير قسم أوروبا الغربية في وزارة

الخارجية السيد **"ماك ماهون"**. ألا تعرفه؟

في هذه المرة قطع **فراسيسكو** حديثي مع القائمة بالأعمال الجميلة من جمهورية بيرو. تعاني **"ليندا"** من مرض ما في الحبال الصوتية. زاد صوتها العميق المكتوم من أنوثتها دون أن تدري. رمقها **فراسيسكو** بغضب بعينيّه الحادتين ثم جذبني من أمامها بحركة سريعة. وقال أنه لا يعرف مدير القطاع السيد **" ماك ماهون"** من وزارة الخارجية. وكأنه يشكك في كلامي.

- عندما نتأخر نذهب للصلاة في الساعة الحادية عشر إلى الكاتدرائية المقابلة للكنيسة مباشرة في وسط أوتاوا وهى مبنية على النمط القوطي الحديث.. تعرف أين؟ .. في الجهة المقابلة للمعرض القومي ذو الأبواب الزجاجية. غير أنه يصعب أن تجد هناك مكانا تترك فيه سيارتك.

في الواقع كنت أريد أن أخبره بما يعجبني جدا في الكنائس الكاثوليكية في أمريكا الشمالية. غالبا ما تقف على يسار المذبح عند منضدة التلاوة سيدة. ترتدي عباءة طويلة ووقورة ، توجه بحركاتها المفعمة بالنشاط وابتسامتها اللطيفة المتدينين أثناء الصلاة. وهى صلاة تعد أكثر جاذبية للمشاركين وأكثر حيوية من مثيلتها في كنائسنا. هذه السيدة القائدة اللطيفة في

الكاتدرائية الرئيسية بالفعل امرأة رائعة. تجعلنا نغنى نحن أيضا باللغة الإنجليزية. أحيانا.

- يبدو أن منافسة البروتستانت مفيدة بالنسبة للكاثوليك هنا

قال **فرانسيسكو** بحزن:

- سيدي السفير، لا تنسى أن عيد الموتى يقترب
- يؤسفني بالفعل أنني لست قريبا من قبر أمي وقبر أبي.
- أتعني أنهما ليسا مدفونين في قبر واحد
- لا يا فرانسيسكو. لقد انفصلا وأنا في الخامسة من عمري.

التقت أعيننا ويملأها الأسف.. من يأسف على من؟

أخرج ورقة من جيب معطفه الثمين وبدأ يقرأ:

*يوم ما سنموت. كل من عاش لابد له من أن يموت يوما ما... سنختفي كاللوحة. سنذبل مثل الزهرة ونسقط... تذكروا أيها العظماء، أيها النسور والأسود. حتى لو كنتم خلقتم من حجر النفريت أو الذهب فإنكم سوف تذهبون إلى هؤلاء الذين لم يبق منهم سوى العظام... قدّر علينا أن نفنى ولن يبقى أحد.*

ناولني النص الذي طبعه من الكمبيوتر

- هذا ليس نص ديني يا فرانسيسكو. إنه يتحدث عن حجر النفريت. يا الهي!

- هذا نص كتبه حاكم الأزتيكيين. كان رجلا سياسيا وشاعرا كبيرا. قتلوا أسرته بالكامل. اسمه يصعب نطقه: (نيتسا هاول تسويتول)
- - نيتسا هاول...
- يجب أن تكثر من الصلاة يا سعادة السفير.

بوجهه الشاحب ولحيته ذات الشعر الأشيب وعيناه الغاضبتان. على هذه الحال قام المسيح بطرد التجار من المعبد وقلب الطاولات على رأسها بغضب، وراح يصرخ.

لم أتحمل فأسدلت نظري ثم وضعت الكأس دون أن أكمله على الطاولة وبطواعية مددت يدي للرجل الهندي عند المدخل وأسرعت نحو الساحة ثم دخلت إلى السيارة. كان السائق "ميلان" مندهشا.

- ستنصرف هكذا مبكرا؟

ذات مرة دعاني زملائي الشباب بعد السادسة مساء للذهاب إلى المدينة لتناول كأس من البيرة. توجه أصغرهم بسيارته ناحية الشمال عبر الجسر. توقفنا عند الطابق الأرضي لمبنى خال من النوافذ. كان المبنى على ما يبدو مخزنا للمأكولات. سمعنا صوت موسيقى وعلى منصة الرقص ظهرت سيدة نحيفة.. المقاعد شبه خالية.

- هل جننتم أيها الشباب؟! أتعتقدون أنني لم أر من قبل رقص التعري؟ ماذا لو رآنا هنا أحد الصحفيين؟

أخذ الشباب مقاعدهم.

لا يقدمون أثناء رقصة "اللاب" سوى البيرة. وأنتم أيتها الفتيات! غير مسموح لكنّ ملامسة الزبائن. ألا ترون تلك الغوريللات في الخلف؟.. أخذني **كارول** ناحية البار.

أشار عليها **كارول**. وقفت **"سيمونا"** على الطاولة بدأت تتجرد من ملابسها على صوت الموسيقى.كانت تبتسم كالملائكة ونحن نبتسم بدورنا.. دفء في القلب.. أمر مؤثر.. كدنا نبكي. كنا نحسد **كارول** وهي ترقص له خصيصا. لكن غير مسموح لأحد بملامستها على الإطلاق. هل تتخيلون حجم هذه المأساة؟

رقص حتى الأفخاد.. مررت بها مرة أخرى وحدي، وكأنك تيسر في طريقك إلى المتجر، وبالسيارة. كنت خائف أن يتعرف عليّ أحد. عند مفترق إحدى الطرق وجدت محلا آخر. فارغ من الزبائن. لن يعرفني أحد هنا. جلسَت عند البار سيدة. فتاة من الكاريبي، لونها بني هادئ، كانت ترتشف بالماصة مشروب "سبرايت" وهي تحاول أن تقرأ في كتاب غلافه ورقي وتغلقه على الدوام.. بعد لحظة توقفت عند طاولتي المثلثة الأضلاع. وعلى بعد خمسة سنتيمترات مني راحت تتلوى. كانت امرأة رائعة.

ابتسمت لي وقالت:

- اسمي "**كاديتسا**"، ما اسمك؟

تلعثمت ثم قلت أنا اسمي "**جورج**" أي "**يوراي**" وهو اسم حفيدي (عفوا يا عزيزي "يوراي"، إنها مجرد مزحة). قالت أنها طالبة علوم سياسية. ويحي!.. شربت البيرة مقابل سعر موحد وهو خمسة دولارات. هل رأى **فراسيسكو** شيئا كهذا؟ ليتني دعوته...! بعينيه البراقتين ووجنتيه المتدليتين. لم أكن لأجرؤ على ذلك. إنني أخجل
من أن أفعل.

(يا الهي! ماذا يحدث؟ هذا الكم من الجمال لا يمكننا أن نلمسه ونحن أحياء ولا حتى بعد ذلك؟)

بعد شهر تقريبا كان عندنا حفل موسيقي رائع. تحدثت عنه العاصمة الكندية بأكملها. قام به فرقة موسيقية سلوفاكية شهيرة "**موسى لودينس**" بأزيائه التقليدية الرائعة وآلات من العصور الوسطى في قاعة فندق "وستنج" الفخمة، بالقرب من البرلمان. وبينما أنا أقبلّهم على المنصة وأصافح أعضاء الفرقة كلهم تسلل إلينا **فرنسيسكو** وعيناه تلمعان من السعادة وهو يقول:

- مبروك، تهانينا سيادة السفير. لقد أشعرتمونا بالعصور الوسطى الجميلة. لقد كانوا يصلون في أغانيهم للإله الحقيقي.

وقتها تلقينا العديد من التهاني من الوزراء والنواب والزملاء من السفارت الأخرى. كنت أشعر وكأنه حلم. وكنت آخر من غادر الصالة. فظهر فرانسيسكو بين الباب المزدوج وتقدم مني وقال:

- عفوا، خطر لي شيء ... أخبر تلك السيدة التي كانت تعزف على العود بأنها تشبه مريم العذراء. إنها مريم العذراء السلوفاكية. لا تنسى من فضلك!

ثم تراجع عندما رآهم يحملون صندوق الآلات الموسيقية.

- صحيح! كيف حال حفيدك؟ على ما أتذكر اسمه جورج ويدرس في انجلترا.

شعرت بغشاوة أمام عيني وتراءت لي **"كاديتسا"** و"البيرسينج" المعلق على بطنها والبيرة الباردة بخمسة دولارات.

- سيأتي إلى كندا في أعياد الميلاد.

بالكاد أجبته وقد استعملت أفضل صيغة للمستقبل.

كانت الساعة السادسة والظلام منتشر في ليلة من ليالي شهر يناير. درجة الحرارة في الخارج بلغت خمسة عشر تحت الصفر لكن سرعان ما اعتدلت حرارة السيارة. وبصعوبة عثرت على الشارع. لم يكن عندي في السيارة كشاف وكان يجب أن أتوقف بجوار الرصيف لكي أراجع خريطة المدينة في ضوء عامود النور. يقع

الشارع بجوار النهر. غادرت السيارة والصقيع القادم من النهر يلفح جسدي. بيت ضيق قديم. فتح لي شاب. خلعت المعطف ثم وضعته في خزانة الملابس. ثم اصطحبني عبر درج ضيق إلى القبو وقال:

- ستذهب عبر غرفة الكهنة وبعدها ستجد المكتبة وبها مقاعد. يوجد هناك...

هناك يوجد خمسة عشر شخصا وعلى وجه التحديد خمسة عشر رجلا في أعمار مختلفة . يجلسون على المقاعد أو يبحثون في المكتبة. ليس من بينهم **فرانسيسكو**. شخص ما يرشدني إلى رجل يقف مرتديا زيا أسود تماما فيعطيني بطاقته. عليّ أن أخاطبه باسمه الأول وهو "**ريفيراند سيمون**". كيف حالك؟ اسمي أنوتن (وليس جورج هذه المرة).

يطلقون على هذا الحدث "التذكير". الشعور الأساسي هو صوت خشخشة وهمس. خشخشة أوراق الكتب (تهورت وقمت على الفور بشراء كتاب العهد الجديد المغلف بجلد مائل للاحمرار. وهو نسخة كاثوليكية أسلوبها أكثر فهما من النسخة الإنجليزية من عهد الملك يعقوب). همْس الحاضرين.. يتصافحون بتردد ويقدمون أنفسهم بأسمائهم الأولى. لماذا الهمس؟ أردت أن أرفع صوتي وأقول شيئا طريفا. لكن الأمر لم ينجح. رحنا نجر أقدامنا متوجهين إلى غرفة الكهنة. وهى حجرة صغيرة بها عدة مقاعد. في المقدمة توجد طاولة مفروشة بمفرش أبيض.

على طرفه نفس الوشاح الذي مازلت أتذكره من فترة الطفولة عندما كانت عمتي **"لينكا"** تحثني على الذهاب إلى قداس الصباح في الكنيسة. ذكرى بعيدة. الموضوع الأول: حب القريب. الأمر واضح باللغة الإنجليزية. القريب هو الجار بدون تحديد لجنسه. والأمر ينطبق على الجارة. آه لو عرف هذا فرانسيسكو...

جلست من باب الحرص على مقعد في وسط الكنيسة، تماما في المنتصف بين آخر صف وطاولة المذبح.لم أجلس عند طرف المقعد حتى لا أبدي أي علامة من علامات الاعتزاز بالنفس. في نفس الوقت جلس **فرانسيسكو** على طرف المقعد الأمامي. لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا، يضع رأسه بين راحتيه. انتهى الجزء الأول من القداس ولم يبد أي إشارة إلى أنه يعرفني. يبدو أنه مازال غاضبا. تدافعنا عائدين إلى المكتبة حيث الجزء الثاني من القداس. وقف رجل ما يقرأ بصوت هادئ بعضا من أقوال يوحنا الرسول في العهد الجديد الذي يعد بمثابة ميثاق في اللغة الإنجليزية، أيْ عهد. ثم جاء الجزء الثالث من القداس وذهبنا من جديد إلى الغرفة وبنوع من الإجلال دخلنا إلى المذبح. الأمر الذي لم يتوقعه أحد في مثل هذا الغرفة البسيطة على شكل سرداب للموتى. *Tantum ergo, sacramentum* (ذكرى أخرى من ذكريات الطفولة، نعم، يضعون لطفل من أبوين مطلقين قواعد راسخة من آراء عمة صارمة وجدين

عجوزين). إن الاستماع إلى أناس يتحدثون اللغة الإنجليزية ويغنون باللغة اللاتينية يعدّ تجربة طريفة إلى حدّ ما فيما يخص طريقة النطق. رحت أفكر ليس فقط في "جراهام جرين" ولكن في أيضا في "توماس موروس" نصير الساسة الطيب (منذ عدة أعوام وأنا واحد منهم). فجأة تسحق الموسيقى القديمة أمامها صيحات الضحك كآلة إزالة الثلج القوية في شوارع مدينة أوتاوا.

عدنا من جديد إلى المكتبة الصغيرة وهنا راح **فرانسيسكو** يحادثني، صارم كعادته. قدمني لاثنين من معارفه من أيام الجامعة. أحدهما من مدينة مدريد. لكن الجميع يبقى محتفظا بالحديث على مستوى الهمس. همست أنا الآخر وأصدر الكتاب الصغير بين يدى حفيفا. اسمه "جوزيه ماريا اسكريفا". اسكريفا! ياله من اسم. شيء بمعنى "مكتوب". أفكاره مرقمة وحادة وطريفة. أفكار أسبانية. إنسان كامل.

عندما تفرقنا في ظلمات ليلة قارصة البرودة ورحنا نبحث عن سياراتنا كان يبدو على فراسيسكو علامات الرضا.

- كيف الحال سيدي السفير؟ ألم يعجبك القداس؟ أم أعجبك؟ .. يوجد قداس مثله للنساء أيضا. يمكن أن تخبر زوجتك بهذا. هذا رقم هاتفي، يمكنها الاتصال بي.

التزمت الصمت أما هو فتنهد وقال:

- كان قداسا صعبا، لكن ربما تشعر بعده بالراحة. أتذكر ملاعب الازتيكين القدماء؟
- نعم. كان على الأسرى أن يقوموا بألعاب الكرة والصفوة تنظر إليهم من المقاصير. كان يلعبون بأرواحهم.
- لقد فهمت الأمر بالطريقة الصحيحة تماما يا عزيزي السفير. وهذه أيضا لعبة حياة أو موت.
- أنا فاهم يا فرانسيسكو. جائزة الفائز هى حياته وربما حريته.

هز **فرانسيسكو** رأسه بحزن ونحن نتوجه صوب سيارته الـ"بويك" القديمة.

- لا، لا، ربما أخطأت في فهم المرشد، أو حدث خطأ ما في الترجمة. الحقيقة هي أن الفائزين في هذه الألعاب كانوا يُعدَمون.

جاهد للحظة في فتح باب السيارة المتجمد ثم مال ناحية الباب وراح ينفخ في القفل بشدة ويدفئ المفتاح بين أصابعه.

- أترى! نحن نخلط الأمور جميعا في المكسيك.

ثم ابتسم وجلس في السيارة وأومأ لي برأسه.

رغم ما يبدو من أن فرانسيسكو قد أوقعني في شراكه إلا أن الأمر غير ذلك. حكيت لزوجتي ما حدث في القداس.. اشترينا في عطلة

نهاية الأسبوع التالية من مكتبتنا المفضلة واحدا من كتب "اسكريف" الساحر. وانتظرنا. كانت قصة لعب الكرة عند الأزتيكيين وأهل "مايو" تدعونا نحن الأوروبيين إلى الحذر. حسب ما نعرفه من تاريخنا فنحن في سلوفاكيا لم نندفع وراء الحماس الزائد. يمكننا القول على نحو ساخر أن التاريخ جعلنا نفنى تماما ونقاسي الأمرين. الأمر الذي يحول دون أن نسعى مختارين وراء حياة زهد فردي أخرى.

لقد توقف القدر عند سكوني. لم يناد أحد ولم يحركني أحد ولم يعد أحد تنظيمي. رحت أعاني المشقة كل يوم وكل أسبوع وكل شهر مع الأعمال الإدارية. تحملت عبء العمل الدبلوماسي الذي لا يدفع الرجل الدبلوماسي إليه الرومان ولا الكهنة اليهود، بل عجز السياسة في بلدي وشراستهم. وإن كان شيئا قد تغير في داخلي أو كنت قد اكتشفت شيئا أو شعرت بسعادة بعد أسابيع أتابع فيها العازفات الساحرات اللواتي يعزفن أغان إنجليزية تبعث على السعادة، فلم أظهر هذا لأحد يوما ما أو على الأقل لفرانسيسكو.

بعد ما يقرب من شهرين رن جرس التليفون.

- كيف حالك يا سيادة السفير؟ الملعب مازال يعمل والألعاب مستمرة.
- عفوا؟ اعذرني، عند الكثير من العمل. ننتظر وفد برلماني ورأسي يدور من كثرة المشاغل.

- حافظ على رأسك يا صديقي العزيز. أنا أعرض عليك أجازة نهاية الأسبوع رائعة في هذا الربيع. بعيدا عن هنا ، في قرية رومانسية بمحافظة "كويبك".
- متى؟
- بعد أسبوعين تماما وقبل عيد الفصح مباشرة. بدلا من متابعة محطة "تشانيل ٧"

ضحكنا. كل دبلوماسي في العالم يعرف هذه الحيلة.

- أنا فاهم... تشانيل ٧.

رائحة الغاز المتصاعد من الطائرات التي تحمل الوفود الحكومية إلى بلدانهم.

- ماذا تقول؟ ستتولى القيادة وسوف أريك أجمل مكان في "كويبك"، مدينة كاثوليكية من الطراز الأول. ستكون عطلة لن تنساها. ماشي؟!

انطلقنا بالسيارة حتى وقت متأخر من النهار. بعد لحظة حل الظلام. انحرفنا من على الطريق السريع متجهين إلى "مونتريال". رحنا نسير بين طرق فرعية لا نهاية لها بين غابات أشجار الصنوبر. كنت متعبا لكن فرانسيسكو ساعدني على أن أبقى متيقظا. في الواقع أننا لم نجري حديثا مطولا بهذه الطريقة من قبل. كان كلامنا دائما عبارة عن عبارات خاطفة وجمل قصيرة متناثرة بين المقبلات وأسماك الجمبري

والعصائر وكؤوس النبيذ الدافئة بين راحتينا القلقتين.

ما اعتبره فرانسيسكو هدفا قريبا لرحلتنا لم نقترب منه أبدا. حتى المكسيكيين الذين يعيشون في أمريكا. إن قال لكم أحدهم في أمريكا أن الغاية من رحلتنا قد صارت قريبة لا تصدقوه. إن القريب عندنا يعني عشرين أو ثلاثين أو خمسين كيلومتر أو على الأكثر ساعة سفر. أما القريب هنا فمعناه مائتان أو ثلاث مئة كيلومتر وربما أكثر – على الأقل خمسمائة على الطريق السريع.

مساء يوم الأربعاء. كان كل منا قد مر بأسبوع كامل تقريبا من العمل. الأمر الذي جعلني أشعر بالنعاس. لكننا جلسنا في سيارتي وكان على أن أقود السيارة.

ما الذي جعلني أوافق على هذا؟ جلس فرانسيسكو بلا حراك بجواري في المقعد الأمامي واختفى في الظلام، لم أكن أسمع سوى صوت أنفاسه.

- قل لي ما هو مفهوم الحرية الدينية عندكم؟.. هل زاد عدد المؤمنين عندكم في سلوفاكيا؟.. وكيف يتصرف الأساقفة والكهنة؟ .. هل يملكون هناك جرائد دينية؟ .. وما هو تأثير الكنيسة على الإعلام؟

هكذا أطلق سيلا من الأسئلة ولم يعطني الفرصة للإجابة عليها. من واقع تجربتي في

العمل الدبلوماسي حتى الآن لم يقم أحد بتوجيه مثل هذه الأسئلة لي (باستثناء بعض أبناء وطني). كانت إجابتي غير محددة. أرهقني من كثرة حديثه. أنا لا أحب أن أتكلم وأنا خلف عجلة القيادة، فقط أركز في الطريق. لم أتجرأ أن أشعل الراديو. سألته من باب الدفاع عن النفس وقلت:

- وكيف هو الحال عندكم يا فرانسيسكو؟ كلنا نستقي معلوماتنا من الصورة التي رسمها "جراهام جرين " في كتابه "القوة والمجد". هل من الصعب اليوم أن تكون مؤمنا في المكسيك؟

هكذا استطعت أن ألتقط أنفاسي. فالرجل راح يمطرني بوابل من المعلومات. إلى أن وصل إلى موضوع شائك وهو علمانية الحياة والعولمة وسيطرة النمط الأمريكي. لقد فقد **فرانسيسكو** تقريبا السيطرة على نفسه. قال بحماس:

- إن حدود المكسيك مع الولايات المتحدة هى أكثر الحدود مراقبة في العالم. وتجري مباراة فكرية عبر الأسوار والحواجز، صراع أنماط الحياة. والمكسيك وكالعادة تخسر دائما.

لا أتذكر كل الحديث المطول الذي حاصرني به فرانسيسكو.. أضاءت مصابيح السيارة الطرق الفرعية وظهرت عليها خريطة ضخمة لشمال المكسيك. راح **فرانسيسكو** يحكي لي كيف أن الأمريكيين "جرنجوس" قاموا في

القرن التاسع عشر بسرقة أجزاء كبيرة من المكسيك باستخدام السلاح والخديعة والضغط.

- اسمع سيادة السفير هذه الأسماء! سان فرانسيسكو، مدينة قديسي المفضل.. سانتا مونيكا .. سانتا كلارا.. سان حزيه- كان ينطق كل هذه الأسماء بالأسبانية، بدت وكأنها من عالم آخر-، سانتا كروز .. سانتا ماريا .. سان برناردينو ..سانتا بربارا .. سانتا كاتالينا .. سان كليمينت.. سان دياجو... أترى سعادة السفير؟! إنه تجوال القديسين، تجوال معاناة المكسيكيين. ليس فقط كاليفورنيا لكن المكسيك الجديدة وتكساس... يا إلهي!!

كان الأمر مفهوما بالنسبة لي.. حائط ظهر من بين الظلمات، تعلوه قمة أسلاك شائكة. نصوص قانون حول منطقة التجارة الحرة بأمريكا الشمالية وقد سقطت في ظلمات جاءت منها لغة فرانسيسكو الإنجليزية التي كان يتكلمها بالطبع من أجلي.

ضحك ساخرا وقال:

- **ل.أ** ، أمر مثير للسخرية، لا معنى لكلمة لوس انجلوس. إنه أمر كوميدي وبغيض. كانت في البداية "لوس انجيلز" أي مدينة الملائكة. أتسمع حفيف الأجنحة من فوقك؟!

ثم أضاف وهو يكاد يصرخ:

- لوس انجيلز، أليس اسما جميلا؟

كنت أسمع حفيف الأجنحة من فوقي. حفيف ثقيل
وكأنه في فيلم بطئ.

وبينما مصابيح السيارة تضئ الإسفلت ظهر فجأة أما عيني جناح أبيض ضخم. غطى تقريبا نصف الزجاج المقعر في السيارة "هوندا". اهتزت عجلة القيادة بين يدي وفقدت المصابيح أمامي فجأة الإسفلت الأبيض وتاهت في الغابة.يا إلهي! إلى أن قمت بحركة لا إرادية بإدارة عجلة القيادة إلى جهة اليسار وتحرك قدمي من على دواسة البنزين إلى دواسة الفرامل. رأيت في ضوء المصابيح منعطف إلى جهة اليسار . رحت أرتعش. أين اختفى الجناح الأبيض؟

قال **فرانسيسكو** لاهثا وهو يمسك بيده عجلة القيادة:

- سيادة السفير، هل أنت بخير؟

نحيت يده التي يكسوها الشعر جانبا وحاولت السيطرة على نفسي. كاد قلبي يقفز من خلف قميصي. لم أجيبه. لقد حضر الملائكة ثم انصرفوا. أنا بخير. لقد صرت على ما يرام.

بعد بعدة دقائق داست السيارة على كومة من الحصي الأبيض أمام قصر صغير مضاء، بني على طراز مساكن المستعمرات كتب عليه le Manoir de Beaujeu. يقع نهر القديس "فافرينكا" خلف البيت. لم نرى مياهه بل شعرنا بها. كانت

تتصاعد منه برودة تنبئ بوجوده. وقفت بجوار سيارتنا سيارة أخرى عليها رقم يشير إلى مدينة "كويبك" والتقينا.

منذ ذلك الحين وأنا على ثقة بأن عمتي "**لاني**" التي ماتت منذ زمن وأنا مازلت طفلا كانت على حق. الملاك "الحارس"، لوس انجلوس، مازال موجودا. هذه الملائكة كانت تتطاير من حولنا في ذلك المكان...

نزلت حجرة صغيرة أحجارها غير مكسوة. يوجد على الحائط صليب بسيط وسرير وطاولة بجوار السرير. يوجد في ركن الحجرة حوض غسيل ونافذة وحيدة تطل على مكان مظلم. طرق **فرانسيسكو** الباب دون أن ينبث بكلمة. إنه وقت العشاء. عشاء؟ شاي في الغلاية وعصير فاكهة وبسكويت. هذا كل شيء. صمت مطبق يقطعه صوت تكسر البسكويت بين أصابعنا. تسللت إلى غرفتي الصغيرة بهدوء ثم رحلت في سبات عميق. حتى الملائكة لم أسمعها.

رن جرس المنبه في الساعة السابعة فانصرفنا إلى حجرة الطعام. الكل هناك صامت. الأب "جريج" رجل نحيف، ربما أيرلندي أو اسكتلندي. تسمع في لغته الإنجليزية صوت تكسير العظام. لا يوجد غير صلوات وشاي أو قهوة؟ بسكويت وخبز أسمر وقطعة زبد ومربى في آنية من البلاستيك. التقينا بعد تناول الطعام

في المكتبة، بالطبع في مكتب الأب **"جريج"**. اقترب مني وقال:

- ألا تريد أن تقول لنا شيئا يا صديقي؟

لم أرد عليه. ورحت أقلب صفحات الكتب. إن الأب **"جريج"** يهاجم الآخرين. لا أتذكر ما تناولناه في طعام الغذاء. لكنني أتذكر كتيب صغير يمرره الحاضرون فيما بينهم. وطوال وقت الغذاء كانوا يقرؤون منه بصوت رتيب (بالطبع كانوا يتوقفون أثناء ذلك عن تناول الطعام). يتجول المبشّر بجواتيمالا وهو يحكي عن حياته هناك بين القرويين. بدأ هذا الكتيب يقترب مني. الأب **"جريج"** يشير فقط بإصبعه إلى من عليه الدور ليقرأ. لكنه استثناني من القراءة. وبمجرد أن دخلت إلى غرفتي الصغيرة دق **فرانسيسكو** على الباب.

- ألا تريد أن تذهب للتمشية؟ توجد كنيسة صغيرة في نهاية هذه المنطقة.

خرجنا إذن في الهواء البارد. تنحدر المنطقة التي بدأ الربيع يكسوها في اتجاه النهر.

قال **فرانسيسكو** بعزم:

- لنأخذ المسبحة.

غير أنه لم يخرج شيئا من جيبه، بل بدأ يقول:

- لم أجيد يوما الصلوات باللغة الإنجليزية. حاولت مرارا لكن دون نتيجة.. "المجد للعذراء، موفورة النعم، الرب دائما معكِ".. في الصلوات القديمة كان

الجميع يتخاطبون بصيغة المفرد وحتى الرب نفسه ومريم. كيف سارت الأمور فيما بعد؟

هكذا انتبه إلى الفكرة وانتقل إلى اللغة اللاتينية التي لم يصبها التشويه. بدأت تخطر على بالي جمل قصيرة أتذكرها من فترة الطفولة. قبل عصر المجالس. Ave Maria, gratia plena, Dominus tecum, benedicta tu in nulieribus, et benedictus fructus ventris tui Jesus كان من الضروري هنا إضافة أحد الأسرار الواجبة. غير أننا لم نتفق في أية شيء. وأجبرني **فرانسيسكو** على المواصلة. Sancta Maria, Mater Dei, ora pro nobis peccatoribus... كان **فرانسيسكو** ينظر بطرف عينه ويكمل معي النص، لكنه سرعان ما توقف. راح يرتل وحده باللغة اللاتينية، بينما أنا أنطق بصوت عال من وقت لآخر بجملة قصيرة أو كلمة قد أتذكرها. كان المعبد الصغير والمذبح محاطان بسياج كما هو الحال عندنا. وقريبا منا وتحت طبقة من الثلج رقد النهر.

قال **فرانسيسكو**:

– في العام الماضي غرق هنا أحد الشبان. ففي شهر أغسطس تعرض للغرق قارب في حالة اضطراب وهو يحمل شابين. دائما ما تكون المياه هنا قريبة من درجة التجمد. فأصيب بنوبة قلبية وتوفي في المستشفى...

هـز يـده ثـم راح ينظـر إلــى السـماء بلونـهـا الرمـادي وقـال وقـد أدار ظـهـره للكنيسـة ويـداه متشـابكتان:

- هيا بنا نعود!

Ave Maria, gratia plena, Dominus tecum

الجـو فــي الكنيســة ســاكن، لا يوجـد سـوى الـهمس. جلس فـي مكتـب الأب "**جريج**" الـرئيس المدنـي "للتذكير". أعطاني دفترا به قائمـة أسـماء وطلبا للاعتراف. اعتـراف بكـل مـا مـر بحيـاتـي. بالـدفتر سـتة أسـماء مـن بـين خمسـة وعشـرين حاضرين. لماذا اختـارنـي أنـا؟ هذا الرجل المدنـي الصارم لم يـروق لـي بأيـة حـال؟ تسمرت عينـي بيــأس علــى صـورة القـديس "**جـوزي مــاري**" المثبتة في الإطار. وجه لطيف، ليس كوجـه هـذا المدنـي. لماذا أنـا؟ هل وافقت الملائكة على ذلك؟

أنــا هنــا وحـدي. فقط علـى بعـد خطـوات مـن غرفتـي الصـغيرة المؤقتة ذات الحـوائط المتسـخة. طالمــا أنـت هنــا، فأنـت هنــا وحـدك معــي. وهـذا أفضل شـيء حيث أستطيع أن أتـواصل مع معك، بدون الآخرين. إن هؤلاء الآخرين يزعجوننا.

- تعال يا صديقي العزيز، تعال لنتحدث!

وجـدتها! إنــه يشـبه جـدي. بوجهـه النحيـف وخديـه البـارزين فـوق عظمـه يكسـوها جلـد يبـدو وكـأنه خشـب مصـنوع بإتقـان، أصـقلته يـد خشـنة لرجل قـوي. عينـاه غـائرتين وكـأنهمـا سـقطتا فـي بئر. بالكـاد لا تـرى منهمـا سـوى فتحتين مـائلتين للاصـفرار غـائرتين فـي جمجمـة الـرأس. كنـت

دائما أخاف من جدي وهو في ذلك البيت القديم بشرفته الخضراء بجوار السكة الحديد قريبا من مدينة "هرون" بمنطقة "كرالوفا هول". مات في سن متقدم (بالنسبة لي مات في عمر مناسب) في زمن الحرب العالمية. قلت متسائلا بصوت عال:

- هنا؟
- تفضل بالجلوس، أنا أسمعك.

جلست عند مكتب جميل غير مرتب. حمل كرسيه بالقرب مني حتى كادت ركبتانا تصدمان..

- لا تخف! ليس من الضروري أن يشمل الاعتراف حياتك بالكامل.

راح الباقون ينسلون من الغرفة واحدا تلو الآخر. كما ترى. لقد سرقت تعبير من زمن الصبا وكأنه كتب بالإنجليزية.

همهم الأب "جريج" وقال:

- لا يا صديقي، لا مجال للحديث عن أية تعبيرات. تريد أن تتحدث عن نفسك، أليس كذلك؟

التفت من حولي حتى أتأكد من أن فرانسيسكو لا يجلس في مكان ما يراقبني. ثم بدأت الحديث. جمل غير متصلة. هل يفهمني؟ وفجأة غمر حجرة المكتب ضوء شمس الربيع. ماذا يحدث؟ راح الأب "جريج" ينظر صوب النافذة من وراء المقعد وهو يغطي رأسه بين لحظة وأخرى. كانت الثلوج تتكسر ببطء فوق

نهر القديس "**فافرينتسا**". ربما لم يسمعها سوى ذلك الرجل النحيف الذي تبدى لي في صورة المرحوم جدي في مدينة "حورحورنيا". حتى أنا لم أكن صغيرا إلى هذه الدرجة في ذلك الوقت. كنت قد تجاوزت السادسة عشر. لوس انجلوس. انتبه! تمالك نفسك! كان من الممكن أن تموت.

(وماذا عن "كاديتسا"؟ والفتيات الأخريات والنساء الجميلات الرقيقات؟ وماذا سيحل بالرجال الذين يعجبون بهن ويسعدون بهن؟ .. يوجد أيضا حديث خاص بإحدى المذنبات. دخلت على المسيح في بيته. مسحت بدموعها التراب من على قدمي المسيح وجففتها بشعرها الطويل الجميل ثم دهنتها ببلسم له رائحة ذكية. شَعُر المسيح براحة مما فعلته المرأة فباركها. نحن نتصور وجهيّ كل منهما... لكن انتبه يا سيادة السفير! هناك أحاديث أخرى. هكذا علق **فرانسيسكو** بحزن وأضاف: لو دفعتك عينك اليسرى إلى ارتكاب المعصية فاقتلعها وتخلص منها... وإن دفعتك عينك اليمنى إلى ارتكاب المعاصي فأفضل لك أن تخلعها وترميها... ألا تتذكر هذا؟)

في هذا اللحظة اختفى **فرانسيسكو** عن الأنظار. ذهب إلى قلعة "كوييك". قلع بنيت على طراز المعسكرات الفرنسية القديمة في القرن السابع عشر. شمس الربيع تضئ المكان..

الأب **جريج** الذي يشبه جدي **أنتون**، ذلك الأستاذ الصارم يستمع بدون تعليق إلى أن يرفع يده.

انطلقنا في رحلة العودة إلى مدينة أوتاوا ظهيرة يوم الأحد. توقفنا عن الهمس. وضع **فرانسيسكو** معطفه على المقعد الخلفي وفك رابطة عنقه وجلس بجواري مرتديا فقط قميصه. رغم أن خطبة الصباح بعد طعام الإفطار (الفرنسي) البسيط كانت عن الموت وانفصال الروح عن الجسد فقد كانت نظرات الأب جريج المتفحصة تجاهي تظهر نوعا من التفاؤل الواضح.

استقر فرانسيسكو منتشيا في مقعده وقال:

- انظر! حتى الشمس لطيفة معنا. لننطلق يا سعادة السفير!

كانت شمس بداية الربيع تطل علينا بحذر من الجانب. لم تذهب الملائكة في الاتجاه المعاكس لكن انسجمت مع حركة السيارة "هوندا". كنت مستمتعا بالقيادة وأتطلع إلى العودة إلي البيت ولقاء زوجتي وكتبي التي شرعت بقراءتها.

صاح فرانسيسكو:

- آه... النساء.. تحدثت معي عن أجازتك التي قضيتها العام الماضي في مدينة "يوكاتان" وأنهم أخذوكم إلى مقر "شيشان ايتسا" في "ماي". أتذكر بئر الحريم هناك؟

لم أتذكره. لم يعلق بذهني سوى طوفان مياه البحر الجميل ومن فوقه الهرم، أو بالأحرى

المعبد ودرجاته شديدة الانحدار والتي لم تتحملها **"إيفا"**. أصبت هناك بجرح وكانت الشمس حارقة. كان المرشد يتحدث عن ألعاب الكرة. لكن **فرانسيسكو** لا يريد أن يتحدث الآن عن إعدام الفائزين.

- يوجد بئر الحريم في مكان ما حول ملعب الكرة. ألا تذكر ذلك يا سيادة السفير؟ إنه اليوم مجرد حفرة مطمورة حتى منتصفها تحت التراب. وكانت في وقت ما ينبوع ماء حقيقي.إن الماء بالنسبة لنا في المكسيك هبة ثمينة. كان أهل ماي يلقون بالقرابين والجواهر والأشكال المصنوعة من الصلصال والبخور والرماح والحراب والأحجار الكريمة في الينبوع أيام الجفاف. وعندما لم ينزل الآلهة المطر كانوا يلقون في الينبوع بأثمن وأجمل ما عندهم.

كادت عجلت القيادة تفلت من تحت يدي.

- النساء؟ يا الهي! طبعا ، بئر الحريم
- كان أهل **ماي** يعرفون جيدا القوة الكبيرة التي تمثلها النساء في هذا العالم. وإن من تغلبت منهن على الأزمة كانت تنال أعلى درجات التقدير.

سعل **فرانسيسكو** ثم واصل الحديث:

- في النهاية كانوا يعثرون هناك على رؤوس لأطفال... فالأطفال هم قمة

الحب المتبادل على وجه الأرض... أمر فظيع، أليس كذلك يا سيادة السفير؟

مررنا يوم الأحد بمناطق سكنية منظمة ومدن صغيرة ومزارع صفت فيها الأدوات بانتظام، رأينا جرارات في ساحات البيوت المرتبة.

- أترى؟ كندا صارت قطعة من أوروبا ومن حضارتكم المستقرة وقيمها السامية. لقد كنتم على مدى قرون مجتمعات مسيحية إلى درجة أنكم نسيتم كيف كان الوضع قبل ذلك. الوضع عندنا في المكسيك مختلف. وضع حقيقي. أنا فخور بوطني. - راح يذكرني بالفترة التي سبقت ظهور المسيح المنقذ وأمه، الفترة التي لم يكونوا ينطقون فيها كلمة "المجد للعذراء"- كنا نخطو فوق بلاد النسر والفهد الأمريكي في "شيشان ايتزا" ننظر إلى الحشائش الجافة. وعلى بعد أمتار من هنا ترتطم أمواج البحر الدافئة بالصخور. وفي هذه المنطقة وفي الوقت الذي كان الفرنسيون يشيدون الكاتدرائيات القوطية تراكمت هنا جماجم القرابين التي كانت تقدم للآلهة والثعابين والنسور والفهود. يمكننا أن نتحسس هذه الجماجم والعظام المستخرجة من بئر الحريم ونتخيل أجسادهم ووجوههم...

- من فضلك يا فرانسيسكو!
- كونك مكسيكي يعني أنك شاهد على تاريخ الإنسان وتاريخ الآلهة. نحن نعرف هذا ونشعر به في العظام وفي الدم. نشعر كيف كان الوضع قبل ذلك. لا يمكن لأحد أن يشرح لنا ماذا يعني الإيمان بقيم أخرى. نحن نشعر في أنفسنا بالفرق بين ما كان وما هو في مقدرة البشر أن يفعلوه بأنفسهم لو استمعوا إلى هذا الشريد من فلسطين. أحيانا أعتقد أن المسيح... آه. كلا، لقد بدأت أهذي. لقد ولدت مريم العذراء بالطبع طبقا لشهادة جميع الشهود وعاشت هناك، بعيدا عن هنا، في الشرق، لكن بالقرب من بحر حنو وأبيض شبيه ببحرنا الذي تحتضنه شواطئ المكسيك. الحقيقة أن نساءنا مختلفات، ممتلئات بالرغبة و...

الطرق في كندا لها مسارات طويلة تماما مثل الرغبة. في ذلك اليوم، يوم الأحد وفي وقت الربيع كنت أستمتع بالقيادة. أرخيت جسمي إلى الخلف حتى كاد شعري يلامس مسند الرأس. قدامي مسترخيتان في سيارة جيدة. حملنا ذلك الوعد بالحرية الإنسانية البسيطة إلى وطننا، إلى وطننا المؤقت. كان فرانسيسكو يتذكر النساء في بلده المكسيك. أعترف بأنني في ذلك اليوم لم أفكر في **"ايدنا"** بل في النساء التي التقيت بهن

في حياتي. في تلك النساء الرائعات عندنا وفي تلك النساء التي نلتقي بهن في الغربة وفي النساء اللواتي أكن لهن الحب واللواتي أخدعهن أيضا، لكني لا أقذف بهن في النبع، على الأقل هذا ما أعتقده.

في هذه اللحظة انتبهت إلى أنني لم أرى **فرانسيسكو** مع أية امرأة ولا زوجة. أعتقد أنه كان أعزبا. فلم أرى معه صديقة ولا زميلة باستثناء السيدة ذات الجسم الرشيق، سفيرته الواثقة من نفسها والتي كانت ترأسه طبقا للبرتوكول الدبلوماسي. أتذكره وهو يجذبني بشدة من عند السيدة الساحرة **"ليندا"** من سفارة بيرو وكيف أنه قام بإلقاء التحية بأدب بارد على زوجتي وزوجات الزملاء ولم يكلف نفسه بمنحهن ابتسامة إضافية.

- شكرا جزيلا سيادة السفير!

كان الظلام قد حل عندما دخلنا في طريق سريع فوق ضواحي مدينة أوتاوا. راح فرانسيسكو يصف لي الطريق. توقفنا في شارع به بيوت زجاجية للإيجار بها تراس في الطابق الأول.

أخرج من صندوق السيارة حقيبة ومعطف وقبعة من القماش.

- لطف كبير منك أنك أوصلتني إلى البيت. أتمنى أن تكون قد استمتعت بصحبتي في عطلة نهاية الأسبوع.

صافحني وهو يعصر يدي بقوة غير محتملة.

مر ما يقرب من ستة أشهر، كان موسم الأجازات قد انتهي. عدنا من سلوفاكيا. رحبنا بسعادة بزملائنا من وسط أوروبا. رأيت فرانسيسكو في حفل بالسفارة الكورية. على ما أعتقد عند زميل من كينيا. ابتسم ابتسامه خفيفة عندما رآني. ثم تقدم مني وأطال مصافحتي.

- يبدو عليك القلق يا صديقي. هل حدث شيء؟ هل ستنصرف رئيستك في العمل؟
- آه، لا، يا سيادة السفير. لن تنصرف بل سأترك أنا العمل. وأحب أن أودعك.
- يؤسفني هذا، فعلا...

أمسك **فراسيسكو** يدي اليمنى بكلتا يديه. بالكاد احتفظت لحيته التي تنم عن زهد بتماسكها.

- إلى أية ملعب للكرة سترسلك الآلهة في "زاميني"؟

تردد فرانسيسكو للحظة ثم قال:

- سأذهب إلى باريس.
- رائع. مبروك! أعتقد أن لديك هناك أصدقاء.

ابتسم في دهاء ثم قال:

- نعم عندي. أحاول أن أعمل هناك في اتجاه آخر
- أتمنى لك التوفيق يا فرانسيسكو.

- أنت سعادة السفير؟ ستبقي عام أو عامين؟
- لا أعرف، ربما عام آخر.
- وفقك الله... أنتظر زيارتك لي عندما تكون في أوربا.

تعانقنا، شعرت بوخز شديد من لحيته الضاربة للبياض. وبحركة لا إرادية ابتعدت عنه. تركني بسرعة. انحنى قليلا ثم بحركة سريعة مر بين الحاضرين وتوجه إلى صالة الخروج. لم أره بعد ذلك.

مر على هذا عدة أعوام وأنا أعيش في وطني سلوفاكيا. بقيت مستيقظا لفترة طويلة في تلك الليلة وبعد أن راودتني في براتسلافا السيدة المكسيكية الجميلة "نينا" بشالها الأصفر الملفوف حول رقبتها وصورها من "يوكتان". لم أشرب الكثير. رحت أتذكر بِأَسَى زيارتين لي في المكسيك، لكن الذكريات جاءت باهتة وغامضة وغير حقيقية.

ربما يكون انزعاجي الحقيقي ناجما عن أخبار سمعتها في نشرة الأخبار المسائية بالتلفزيون حول الهجوم الإرهابي الكبير على المسافرين في قطارات الصباح في مدريد. اختلفت الأخبار حول عدد الضحايا. في النهاية استقر الرقم على ١٩٩ قتيلا. ولم يستطيعوا التعرف عليهم لعدة سنوات.

جلست مرتديا البيجاما عند الطاولة. رحت أبحث في يومياتي وملاحظاتي. وفي الساعة

الثانية بعد منتصف الليل شعرت بوخز في عيني. استلقيت ورحت في النوم. لا أعرف في أية ساعة من ساعات الليل داهمني هذا الحلم. أنا غالبا لا أتذكر الأحلام، لكن الأمر هذه المرة كان مختلفا.

قالت لي **"إيفا"** بطريقة لطيفة ونحن نتناول الفطور:

- لقد عدت من جديد تصرخ وأنت تحلم.

نعم، لقد استيقظت في ساعة مبكرة في الصباح وأمسكت بحافة الأريكة. كان حلما فظيعا. ليلة سوداء قاتمة. أتحسس من حولي، أشعر بريشة ما تلامس خدي. أفتح عيني وأرى أمامي جناح يرتجف، جناح طائر (ملائكي؟) أبيض. (يلازمني منذ الطفولة هلع رهيب من ملامسة ريش الطيور. لم أستطع كزملائي من حمل عصفور بين يدي ولا ملامسة دجاجة في فناء البيت). يزداد الطنين ويدفعني ضغط الهواء إلى الريشة. أطير أثناء الليل تحت أحد الأجنحة الرهيبة، اختنقت من الخوف، شعرت بنبض كائن حي تحت الريش. تقلصات منتظمة، أشعر برغبة في التقيؤ (عندها رحت أصرخ وألهث)، أردت أن أتخلص من قوة خفية، أرى أمامي أرض غارقة في الظلمة. وفجأة توقفت واختفى الجناح وبدأت أسقط، استمر السقوط طويلا، شعور معروف في الأحلام. وعلى الأرض في الأسفل فوق إحدى الأراضي توجد هالة مضيئة بها أربعة أبراج في أركانها وفي

منتصفها معبد وقباب وأسوار مربعة وطوابير لا نهاية لها من نوافذ لقصور، تضيء كالنجوم لكنها على الأرض، مجمع معماري غامض. يبعث على الرعب من فخامته وخلوه من السكان (صرخة أخرى قبل السقوط؟ لا، قبلها رحت عدة مرات أتأوه، تعرفون هذا الأمر، أردت أن أصرخ لكنني عاجز عن أصرخ أو أصدر أية صوت). لا أعرف شيئا عن السقوط، فجأة أجد نفسي أجري بين الأنفاق ذات القباب الكبيرة. لم تكن مواسير صرف صحي، فمن حولي تنتشر أعمدة على الطراز الباروكي وعلى الطريق انتشرت نمازج للكرة الأرضية والسماء بنجومها وعلى الجانبين مكتبات ضخمة وأضيئت الأسقف بالألواح الزيتية وأنا مازلت أجري. أسمع وقع أقدامي، تملكني الخوف من أن تسقط تلك القباب المتداخلة على رأسي. بالطبع متاهة كهذه ليست بالأمر الغريب في الأحلام. وفجأة أجد نفسي في ممر آخر، وحيدا تماما، في الليل، غير أن الزينة على السقف تغيرت وأنا مازلت أواصل الهرب. صُوَر تومض على الجوانب، شيء وكأنه بانوراما (في وقت ما كنا في رحلة مدرسية في براغ وأخذونا لزيارة بانوراما معركة "ليباني") خط لا نهائي من الصور، بها فرسان متأهبون ودروع ودماء وجياد ممدة على الأرض، صهيل خيول وجلجلة أسلحة وأشلاء جثث. أين أنا؟

هنا أمسكت بحافة الأريكة، وسحبت الغطاء تحتي. أمر واضح، إنها مدريد وضواحيها، "سكوريال"، المقر الطموح لفيليب الثاني ملك أسبانيا الذي زهد في الحكم وأراد فقط أن يتفرغ للقراءة وأن يموت بين كتبه وأمواته. أمر في حياته أن يبنوا له قصرا ومقرا وكنيسة ومكتبة ومعبدا ومقبرة في مكان واحد. وأمر بأن يدفن بالقرب من قدس الأقداس. أنا أهرب مرورا بدهاليز المكتبة ودهليز المعارك، دهليز تمجيد بطولات عصر المسيحية. لم يكن واضحا ماذا سيحل بي. شعرت أنه أثناء هروبي الجنوني أنني أصبت في خصري، قلبي القديم مازال موجودا. يمكنني أن أصل إلى سرداب الملك نفسه أو إلى الصالة المستديرة للهيكل الملكي حيث تصطف فوق بعضها نعوش سلف الملك فيليب وخلفه. ولا أثر لحياة سواي هنا. ضائع وعاجز عن طلب المساعدة أو حتى الصراخ.

(تفسير هذا يعتبر أمر بسيط، شأنه شأن كل شيء بعد أن يستيقظ الإنسان. قبل عدة أيام شاهدت مع "**إيفا**" فيلما وثائقيا في محطة التلفزيون الألماني حول مجمع قصر "سكوريال" وقلنا أننا يمكن أن نعد لرحلة إلى أسبانيا إن سمحت الظروف، في وقت ما خارج الموسم حيث يكون الطقس مناسبا).

توقفت ولا أعرف أين أهرب. أرى أمامي نافذة مغطاة بسياج سلكي. أمسكت بالسياج

الحديدي البارد. كان المذبح من خلف النافذة مضاء ومن فوقه شعاع ضوء شديد. سمعت صوت خشخشة من خلفي. نظرت من حولي وهممت بالحديث، لكن عبثا حاولت أن أفتح فمي. ثم ظهر في الظلام رجل في رداء الرهبان. رفع يده اليمنى ثم راح ينظر بكآبة وحزن صوب المذبح إلى جسد رجل يرتدي معطف رمادي وقميصا مفتوح الأزرار ، شاب ذو لحية يقف في منطقة المذبح المقدسة والمخصصة للملك وحده. هذا الملك الذي دفن هنا حتى يكون قريبا من الله ليلا ونهار، في كل زمان وحتى يوم القيامة. قريبا من رقائق الخبز البيضاء في وعاء القرابين الذهبي (كقرص الشمس) المقدس والذي صنعه أمهر صناع الذهب في "توليدو"

رحت أغرز أصابعي في خشب الأريكة القديمة حتى كسرت أظافري. لكن كان الأمر واضحا. الملك والقس فيليب الثاني ينظر بلهفة وحزن في جوف الليل إلى القادم الجديد الذي يرتدي معطفا. عرفته بدون أدنى شك فرحت أصرخ.

بعد ذلك اعتبرت وكالات الأنباء أنه لم يعد ضروريا الحديث عن مأساة الحادي عشر من مارس ٢٠٠٤ في محطة القطارات في مدريد. تأكد أن عدد الضحايا قد ارتفع إلى ٩٠٠٠ اختفى دبلوماسي مكسيكي من فندق "برنسيبا بيو" الصغير، القريب من منتزه عند محطة

القطارات طبقا لقائمة النزلاء. جاء في يوم الاثنين قادما من باريس في أجازة قصيرة قبل عيد الفصح. غادر الفندق في صباح يوم الأربعاء ليستقل قطارا يحمله إلى مدينة "سان لورينزو ديل اسكوريال" ولم يعد حتى المساء (أتوقع أنه كان يريد أن يتعبد طوال الليل في "سكوريال" وسوف يعود في الصباح بالقطار المحلي إلى مدريد).

لم يتم تحديد هوية بعض الضحايا بعد الانفجار مباشرة ولا حتى بعد مرور أيام. بعد مجموعة انفجارت تم العثور على الرصيف السابع على حقيبة جلدية بها بطاقة هوية لدبلوماسي مفوض في باريس. أثبت اختبار الحمض النووي أن شعرة من ذقن الرجل عثر عليها في مقص صغير يستعمل في الرحلات تضاهي الشعرة التي وجدت على الزمام المنزلق للحقيبة. وقد ثم العثور على المقص في رف مرآة الحمام فوق الحوض في الغرفة التي كان ينزل بها الدبلوماسي. (كان الضيف رجل متحفظا يبدو أنه كان يهذب لحيته بنفسه). لم يتم العثور على بقايا جثة الدبلوماسي المكسيكي ولا التعرف عليها.

حتى اليوم لا يعرف فيليب الثاني، الملك والقس وحارس "سكوريال" حقيقة جسد المسيح الذي يرتجف كل صباح، عند الظهيرة وأثناء الليل. رجفة جسد مدمر (ربما متحول؟) بالكامل. لا يعرف أن الدائرة البيضاء الغامضة

التي غالبا ما تهرب أمام من يواجهون الموت في الأنفاق المضيئة يمكن أن تحتوي على مسحوق مجهري، لم يتمكن منذ ثوان قليلة أن يخرج حزنه (وربما حزن الملك). يا الهي، يا الهي! لماذا تركْتَني؟ كانت موجة التفجيرات في وقت الصباح تقفز على الخرسانة الإسمنتية كثعبان مكسو بالريش. دمرت بقوة كبيرة على الاختراق كل نسيج وقف في طريقها.

نال الفائز في لعبة الكرة جائزته. ولم يتبق لنا، نحن المهزومين، سوى فرصة أخرى لنرمي بالكرة في الملعب ونحلم بالانتصار.

# يوم الشهوات الكبرى (مقتطف)

٨

- ضمني إليك!
- ها أنا أضمك.
- ترى متي سيعثرون علينا؟
- "رايه" ، دعكي من هذا الكلام!
- كم تستغرق فكرة مولد إنسان جديد؟ هذا ما أعنيه. عملية خاصة من قلب بائس في سجون العجائز. ارتعش الرجل. فهمست قائلة:
- أنا خائفة.
- رائع ، أنا خائف أيضا.
- أنا فعلا خائفة ، انظر إلى المدينة التي توجد هناك خلف الحصون. رادارات تتحرك بنشاط في كل اتجاه، آلاف البشر يمارسون الحب بلا جدوى، الهواء المضغوط يندفع في صفارات الإنذار المتأهبة، الأذرع الضيقة تدور والهواء يهتز ليوقظ النائمين ويبعث الفزع في قلوب كل زوجين يرقدان معقمين في مخادعهم. كم هذا رائع يا حبيبي. صفارات الإنذار تعلن بداية الإنسان، يهرول فقراء الهنود والصينيون الصامتون، يغادرون ضواحي المدينة وأحيائها وبيوتها التي تخلفت عن عجائز ماتوا بعد أن تجاوزت أعمارهم المئة عام، أتعرف، هؤلاء الهنود والصينيون

الذين تكيفوا مع قانون إبطال النمو وهم على استعداد لأن يتحملوا عبء حياة مديدة خالية من بكاء الأطفال. ضمني إليك أكثر وأكثر . ظل الأماكن البعيدة يبعث في قلبي الرعب. أرى دبابات الشرطة وهي تتحرك، عليها أفراد من الشرطة مدججين بالسلاح ، رؤساء وقضاه أعياهم طول السهر - قبلني يا حبيبي، لا تدعني أواصل الحديث. أراهم وقد بدءوا يحملون كشافاتهم ويدخلون إلى الغابة. هل أنت هنا؟ أحقا أنت هنا أيها الرجل الجسور؟ قل لي شيء أيها الحبيب الغالي! قل لي لماذا نعيش يا حبيبي؟ فقط لكي نعيش؟ أم لكي نموت؟ الإجابة واضحة وكاملة ورائعة ، أليس كذلك؟ فنحن نعيش لكي يحب بعضنا البعض. فهذا هو قدرنا ، هذا هو قانون الحياة الخالي من الآلام . لقد طردونا لكي نطبق تقنية السعادة... ضمني إليك أكثر وأكثر. تبدو كشاب من الأزمنة الغابرة ، يقترب من فتاته كالبطل . سامحني ، إنها لحظة رائعة من الخوف أعيشها".

- **"رايه"** ، أنا أحبك بشدة ، أنا خائف عليك ، **"رايه"** ! تعالي لنهرب من الغابة ونعود إلى الشوارع المضاءة ، لا أريد أن تضيعي مني ، أتفهمين؟ هيا بنا

نذهب إلى الوادي.. سنخدعهم .. سنقول لهم أننا لا نريد خرق القانون ، فقط نريد ممارسة الحب، ولا نريد طفلا جديدا في هذا العالم. رايه ! أتسمعينني! أتفهمينني!

- نعم يا حبيبي أنا أفهمك. انظر! لقد بدأ القمر يطل ويضيء السماء.. وهاهو المساء قد حل.
- "رايه" ، أنا الآن سعيد ، أمر بأصابعي على شفتيك وأشعر بخوف يتسلل إلي من المجهول. لقد وقعت في غرامك يا حبيبتي. أفكر في كل دقيقة قضيتها معك ، في الكأس الذي لم أكمله ، في الكتاب المفتوح والشمعدان في حجرتك ، أنتِ كل هذا! أرجوك باسم هذا كله أن تفكري جيدا. لمَ نشغل بالنا بفكرة إنجاب طفل يستحيل أن تتحقق؟ ... انظري في عيني وفكري مليا. إن الحب والأمومة أمران مختلفان. فقط في عالم البشر يرتبط الحب بقوة بالإنجاب عندنا.
- "أنت لا تفهم شيء يا حبيبي. فلم تكن أبا يوما من الأيام ولم تجعل أية امرأة أما يوما ما."
- أنا لا يعنيني سوى أنتِ ، هيا لننجو بأنفسنا! ألا تسمعين! إنهم يبحثون عنا. هيا لنعد إلى الوادي!
- ماذا تعرف عن النساء يا حبيبي؟ شكلهم ، ظاهرهم الذي يبدو مثل البندق بين

قشور مختلفة. ضع رأسك على صدري ، نعم ، أسمع ضجيج الدبابات وصفارة إنذار تدوي من جديد... أتعتقد أنني يمكن أن أتنازل هكذا ببساطة عن أمومتي؟ ربما كنت أوافق على هذا الأمر وهذا المنع بدون مشاكل لو كانت النساء في الماضي تلدن فئران بيضاء أو قطط أو حتى منتجات غير حية جميلة كأجهزة كمبيوتر صغيرة. إلا أنك لم تعش في هذا العصر. كان من حق النساء منذ عدة عقود أن تلد بشرا ، أتفهم؟ مخلوقات صغيرة ، كانت ...".

- مئات الملايين من الأطفال الفقراء والمرضى ذوي البطون المنتفخة من الجوع ، قارات من الفقر وسوء التغذية. كان الموت بمثابة إنقاذ لهم.!
- يا عزيزي خبير البيولوجية الإليكترونية ! إن **بيتهوفن** الأصم أو **ديستايوفسكي** المريض بالصرع قد لا يجتازان في القرن الواحد العشرين اختبارات الوراثة التي يجريها المركز البيولوجي التابع لكم. وطبقا لقانون منع النمو المعمول به لم يكن ليولدا على الإطلاق.
- نحن نعرف الشفرة الجينية ويمكننا أن ...
- كم أنت رائع ... أيها الساذج الذكي ، لهذا أحبك وأريدك أن تكون معي. اسمع

يا حبيبي! لا يهمني ما تعرفه بل ما يهمني الآن هو ما أعرفه أنا. أنا أقوى من فيالق الشرطة والترسانات الفضائية. فحبة دواء لن تحميني على مدار الساعة. في إمكاني أن أكون أما خلال أربعة وعشرين ساعة . ولم يتبق لي سوى ساعات قليلة. بضع ساعات من الأمومة . ميراث ملايين السنوات الذي تحاولون القضاء عليه. لقد ولد على مر التاريخ ملايين ، بل مليارات الأطفال الصغار الذين لا حول لهم ولا قوة. من هذا الحبل السري خرج الملوك والأنبياء والثوريون والرسامون ومنظفي الأحذية وحتى السفاحون... فدائما كان هناك أمل أن يملأ أحدهم هذا العالم بالحب والسعادة المتجددة وبالجرائم الجديدة. كانت هناك دائما فرصة للبداية من جديد. ضمني إليك يا حبيبي. تفحص جسدي ، لقد بدأ يذبل كالبشرية. انظر حولك أيها الخبير البيولوجي! إن الأشجار ذات الأوراق الذابلة أعدادها بمئات الملايين ، لكنها في العام التالي تخضر من جديد. ومن جديد يغني طائر مجهول غناء غريبا لم نتمكن بعد من القضاء عليه ، إنه يدعو طائرا آخر للممارسة الحب. الجعلان تموت بعد ممارسة الحب ولكنها لا تخاف.

- لكني لست...
- أعنـــي نحـــن البشـــر ، تـــاج الخليقـــة ، ننقرض من أجل سعادة جيل أو جيلين. نريد أن نعيش بدون ألم ، بهدوء وسكينة وبعـــد بعضـــة أعـــوام ســـيقتل بعضـــنا البعض. سيضيق بعضنا بالآخر. هكذا هـم البشـر. لا أمـل فـي التغييـر ولـن يسمحوا لنا حتى بالموت.
- **رايه** ، أنا أحبك. لماذا تجلديني بأسئلة لا معنى لها؟
- أنت شاب جيد. أتخيل نفسي وأنا أقف معـك فـي عصـر آخـر ، فـي العصـر الماضي وبدون قانونكم هذا. أرى نفسي أقف هنا اتكأ على هذه الشجرة وأشكو بأنني يجب أن أحمي نفسي من طرف ثالث. ألم تحكي لك أمك الحكايات؟ ألم تحكي لك أن العاشقين كانوا يتأذون من أطفالهم الذي لم يولدوا بعد إلى درجة أنهم كانوا يسببون لهم في الأذى بعد مولـــدهم.ألا تعـــرف أن البشـــر كـــانوا يقيسون بصورة تلقائية طول مولودهم. إن أنفاسنا المتلاحقة ، لمساتنا ، خططنا ، نشوتنا ، كل هذا لا يظهر فقط على وجوهنا نحن الاثنين كعاشقين. إن هذا الثالث الخفي ما هو إلا حربة ميزان الحب ولا مفر لنا منه. في وقت ما كانت الحب بين كل اثنين يتحدى الخوف

والمسؤولية. أعتقد أنه لذلك تفوق على شكل العلاقة الحالي وممارسة الحب المشروط بالإجراءات الصحية. إنه أمر يبعث على السخرية يا عزيزي القادم من مركز العمليات البيولوجية!

- أتشعرين بالبرودة؟ أعتقد أنني رأيت غطاء في حطام طائرتنا.
- ما هى عقوبة مخالفة المادة ٨٦؟
- بالنسبة للمرأة اختزال عمرها إلى خمسين عاما. إذا كانت المرأة قد خضعت لعملية منع تقدم السن فيلغى المنع وتترك المرأة لتلقى حتفها..
- أنت تحفظ مواد القانون جيدا ... أترى! سوف يتركوني أموت وسأتحول إلى عجوز تملأ جسدها التجاعيد ، تجعلك تنأى بنظرك عنها. أما أنا فسأرعى الوليد ، سوف...
- لن يسمحوا لكِ
- ... سأختبئ . وستكون معي يا حبيبي
- **رايه** ، أنت ترتعشين
- أشعر بالبرد ، تعال، أعطني يدك ولنذهب إلى البحيرة

لم يتحرك الشاب من مكانه لكنه أغرق وجهها بالقبلات ، أراد أن يتأكد من أن من تقف أمامه هى امرأة في الأربعين من عمرها بدون تجاعيد.

- رايه ، أعتقد أنني فعلا أحبك ، أتسمعين يا رايه!

صدرت أصوات صفارات الإنذار من الوادي وضجيج مكتوم. أما الهاربان فقد توقفا يلتقطان أنفاسهما. جذبت المرأة الشاب وقالت:

- تعال! لنخرج فورا!
- لا ليس من هذا الجانب ، لنذهب مباشرة إلى الغابة! يوجد هنا رصيف صغير ضيق لا يتسع

للسيارات ولا للدبابات.

## ٩

كم من الوقت مر وهما يهرولان في الغابة؟ نصف الساعة؟ ساعة؟

لم تتمكن "رايه" من النظر إلى ساعتها. أشعل الشاب للحظة جهاز الاتصال المعلق في رقبته. صدرت منه صرخات مختلطة ثم صوت يقول: إن المشتبه بها والعضو المحكوم عليه يوجدان في أسفل المنطقة ٣ ب... تجمد الدم في عروقهم. ثم أخذا يتخبطان في الغابة بكل ما أوتيا من قوة.

- انظر! هناك على اليسار! أترى؟

اعتقد أنها قد أصيبت بهلاوس

- أرى هناك بيتا ما أو سقيفة مهجورة أو مخزن ، لنذهب هناك لنتدفأ.

كان المنزل مضاء . انبعث الدفء في جسدي الهاربين. أخرج الشاب من معطفه

بندقيته التي تعمل بالليزر ثم فتح بحذر بوابة البيت الضخمة.

رأيا أمامهما حجرة ريفية يكسو أرضيتها طين داسته الأقدام. يتوسط الغرفة مدفأة مشتعلة. رأيا فتاة صغيرة تجلس على فرو متسخ عمرها حوالي تسع سنوات. تدير ظهرها للباب. بجوارها دلو بال أزرق اللون به ماء. كانت الفتاة تخرج من هذا الماء دمية كبيرة وردية اللون أضفى عليها الضوء القادم من المدفأة لونا أحمرا زاهيا وبراقا.كانت الفتاة تهمهم بكلمات غير مفهومة وهى تجفف الدمية بمنشفة بها عقدة كبيرة.

- أيتها الفتاة!

لم ترد

- أيتها الفتاة!

فرفعت السيدة صوتها وقالت:

- مساء الخير!
- لا تخافي ، نحن لسنا سوى ...

لم تلتفت الفتاة ، فقط هزت رأسها.

- بهدوء يا عمي من فضلك !

تقدمت "**رايه**" خطوة إلى الأمام. نظرت الفتاة إلى السيدة وقالت:

- أنت أم ، أليس كذلك؟ أترين يا سيدتي ، ها هى "إيفيتا" قد استحمت. إنها لا تأكل بصورة جيدة. هل ابنتك أيضا لا تأكل بصورة جيدة يا سيدتي؟

تقدم الرجل نحو المرأة وابتسم برقة.

أجابتها "**رايه**" بصوت منخفض وقالت:

- نعم ، ابنتي أيضا كذلك. كل الأطفال لا يأكلون جيدا.

اعتدلت الفتاة ثم وضعت الدمية على طاولة من خشب البلوط.

- أين أمك؟

صمتت الطفلة

- وأين أبوك؟

قالت الفتاة الصغيرة:

- من أين لي بأب أو أم؟ كان عندنا في ملجأ الأطفال مربيات فقط.

ثم لفت الدمية في غطاء وسوته بعناية ثم قالت:

- أتعرفين يا سيدتي ، أنا لا أنام جيدا.

قالت رايه" بصوت مرتعش" :

- أرجوكي لا تبكي!

انصرفت الفتاة إلى أحد الأركان ومعها الدمية ثم وضعتها على السرير وغطتها بالبطانية.

- بعد أن تنام ابنتي "**إيفتا**" سأشعل جهاز الموسيقى.

صوت فرقعة ثم انطلق من أحد أركان الحجرة صوت الطفلة وهى تبكي بكاء حار. انتفض لها قلبيهما وقال الرجل:

- ألا يمكن أن تخفضي صوت الجهاز؟

التقطت الطفلة جهاز الموسيقي قديم الطراز وراحت تحميه وكأنه تحفة غالية الثمن.

أيقظ بكاء الطفلة في نفس "**رايه**" ذكرى قديمة. فقالت بصوت منخفض:

- إنه هو بكاء الطفل عند تغير حفاظته.
- عند ماذا؟

هزت "**رايه**" يدها في الهواء وقالت:

- أنت لا تفهم هذه الأمور.

تبادلت رايه والطفلة النظرات التي تنم عن فهم المراد. وظهرت على وجهيهما علامات احتقار لهذا الشاب الجاهل.

## ١٠

غلب الطفلة "**ليندا**" النعاس في سقيفة البيت وهى تمسك بدميتها . أخذ الرجل والمرأة يتبادلان النظرات في لهيب نيران المدفأة.

- مسكينة "**ليندا**". أنأخذها معنا؟

أومأ الرجل بالموافقة.

- لم أرى النيران الحقيقة في صغري. كنت أراها فقط في التلفاز.
- حبيبي ! ستغطيني بسترتك ، أليس كذلك؟

وبعد لحظة صمت واصلت قائلة:

- نحن وحدنا؟ ألا تعرف هذا؟
- أنا سعيد
- حبيبي أنا أكاد أموت من البرد.

وهنا اقترب الرجل منها تماما ثم أغلق عينيه . فقد حان الوقت

عيون مغلقة وسحب فوق النهر وأجراس نحاسية وأجنحة صواريخ. الستائر البيضاء تتحرك بشدة وراء بوابتي والسماء تمطر زهورا. رماد النار يتحول إلى ورق. أنفاسك المكتومة تخرج قرب أذني ، الأحصنة الرمادية تنطلق في خطوط السباق ، هذه الأرض القاسية ، هذه الأرض القاسية. بحر الجمال ورغوته. السفن محدبة الجوانب تقترب من بعضها ثم تنطلق صفارات الإنذار. موجة من الرطوبة في الآفاق. الصور تهتز في أطرها. الشبكة تتشقق . جفاف المنطقة استوائية. ضحكات هادئة ونقطة الدوامة. نسقط في الفراغ . نوبة دورات عذبة وخرير مياه في كهف في جوف الأرض.

- هل أنت هنا؟

يصدر من الوادي صوت صفارة الإنذار مصحوبا بضجيج. الأشجار تتكسر. إن "رايه" ترقد على القش وتحلم:

- أسمع أبواق الملائكة. ألا ترى كم الذهب من حولنا؟ "اليزابيث" تخرج إلى الشرفة التي تغرقها أشعة الشمس ثم تلقى بتحية ملائكية.

نهض الرجل فارتطم بعارضة خشبية من فوقهما.

- صفارات الإنذار! ألا تسمع صفارات الإنذار؟

خبط شخص ما من أعلى. وانفتح الغطاء الخشبي وظهرت في فتحته رأس طفلة.

- **"ليندا"!**

قالت وهى ترتعش:

- عمي ، أعتقد أنهم يبحثون عني ، لقد هربت من الملجأ والآن..

أمسك المرأة بشدة وساعد **"ليندا"** على النزول من على السلم ، أخذت "ليندا" دميتها وبعض الملابس ثم مالت على **"رايه"** وقالت: أريد أن أكبر يا سيدتي ، أريد أن أكون كبيرة ، لا تسلموني لهم!

قال الرجل وهو يضع ينقل بيده الماء من حوض الغسيل إلى الدلو:

- لا تخافي ياليندا! إنهم يبحثون عنا .

أحدثت بقايا الجمر فرقعة تبعها فوران . وفجأة ظهر مربع ضوئي وهاج ، عكس ظل **"راية"** على الحائط.

لديهم كشافات ضخمة وهاهم يتقدمون صوبنا من أسفل. انطلق خارج المنزل ، فهبت رياح شديدة من فوق رأسه.

- إنهم معهم مروحيات.

صرخت **"ليندا"** قائلة :

- هيا بنا؟

إلا أن المرأة وقفت متكأة على الحائط وسترتها مفتوحة وهمست قائلة:

- يا حبيبي ماذا لو أن هذا كله ذهب هباء ولم أصبح أما؟ لماذا لو أنني لا أحمل في جوفي ...

كانت ساعة يدها تشير إلى منتصف الليل إلا ثلاث دقائق بالتوقيت العالمي.

تقدم الرجل والطفلة نحو المرأة وبدأت "**ليندا**" تربط أزرار سترة المرأة ثم انزوت تحت زراعها.

- لنهرب سريعا يا سيدتي!

قال الشاب بهدوء وهو يسحب بندقيته الليزر من الجراب : - هيا بنا! كانوا قد وصلوا عند الباب حين أضاف الرجل قائلا:

- لم يبقي لنا سوى الأمل. يجب أن نعتقد بأنه مازال موجودا. أعطني يدك!

مدت له المرأة يدها وأمسكت بالأخرى "**ليندا**" التي تمسك دميتها.

في الوادي كانت أصوات صفارات الإنذار تدوي حزينة وهي تقترب أكثر فأكثر ، الأضواء تتأرجح عليهم من أعلى والهواء يصدر ضجيجا. الجميع يبحث عن إنسان لم يولد.

انصرف الرجل والمرأة والطفلة إلى عمق الغابة. كان على قناعة بأنه مازال هناك أمل.

# القطة السـوداء
(مقتطف من رواية تذكر القيصر)

لم يدم السلام الذي حل بعد حرب البلقان طويلا. فبعد أسبوع من التوقيع عليه أطلقت مجموعة "الأتراك الشبان" في اسطنبول النيران على وزير الحربية وأعلنت أن الأتراك لا يعترفون بمثل هذا السلام المشين. وهكذا اندلعت المعارك من جديد.

أعلن "**فرديناند**" قيصر بلغاريا:

- يجب أن نعمل على تحسين صورتنا وقد حان الوقت لأن ننزع الشوكة من اقدامنا.

قالت الجنرالات:

- قلعة "درينوبول"!
- هذا صحيح! فلتعدوا خطة حربية لغزو قلعة درينوبول.

عندها أعلن ولى العهد "**بوريس**" وعيناه يملأنها الحزن قائلا : أريد أن أكون معكم.

حصل "**بوريس**" على ضابط الخدمة "**يوليس**" المعروف بـ"**طاليسمان**" وعربة نوم وطباخ وعربة تغذية. وبعد بضعة أيام تمكن من متابعة هذه الحرب اللعينة. عملية عسكرية مليئة بالأفكار العبقرية من بينها على سبيل المثال وسائل التغلب على الموانع المائية حول القلعة. أصدر العميد "بتروف" أوامره بصناعة خيول خشبية لكي يثبت عليها الجنود جسور خشبية أثناء الليل. هذه الشبكة من الجسور حملت الأبطال المدججين بالحراب أثناء الليل حتى

وصولوا إلى أسوار القلعة. كيف يمكن التغلب على المتاريس ذات الأسلاك الشائكة المنتشرة على اليابسة؟ لم يكن لدى الشباب البلغار وقت خلال الهجوم الليلي بالحراب (ولم يكن لديهم حتى الوسيلة) لتقطيع الأسلاك الشائكة الغليظة. قام أحدهم بخلع معطفه الثقيل ووضعه على أحد المتاريس وقام الآخر بوضع سترته الطويلة. وهكذا هجموا واحدا تلو الآخر على عدوهم أثناء نومه.

قال "**فرديناند**" متفاخرا:

- لقد استعملنا لأول مرة في الحرب فن الطيران وقذفنا القنابل من طائرتنا على خطوط الأتراك (هذه القنابل لم تكن سوى قنابل مشاة عادية).

أضاف "**أنطونين**" الابن : ولأول مرة قام الطيران بالهجوم من على الأرض".

إنه رأى مرة آلة حربية مصابة وملقاة على الأرض وتضئ كالمشعلة. وعبثا حاولوا تجزئة المشعلة الرئيسية إلى مشعلين صغيرين فقالوا: - الأمر يتطلب مظلات.

فقال أحدهم: - كل ما تحتاجونه سيكون متاحا. يوما ما سنخترع كل شيئ.

دخل القيصر برفقة "**بوريس**" و "**سيريل**" والآخرين من أصدقائنا منتصرين إلى قلعة "درينوبول" التي سقطت. كان "**فرديناند**" مذعورا من وباء الكوليرا. فلم يسمح لأحد بمغادرة السيارة. انطلقت السيارة محدثة

ضجيجا بمحاذاة صفوف لا متناهية من الأسرى الأتراك. ومن حسن الحظ كان هذا في شهر مارس ، وبحثوا في مكان عمن أصيب منهم بمرض الشرث وما إن كان بينهم من هو مازال على قيد الحياة.

ثم عدنا بعد ذلك إلى المنزل حيث ينتظرنا العميد المهزوم "شكري باشا". كانت تحت عينيه هالات سوداء ، قام بتسليم **"فرديناند"** سيفه. لكن القيصر أعاده له بدون تعليق ثم قال للأمراء موضحا: - الآن لنذهب إلى مسجد السلطان سليم ، إنه بناء قيم يضم معبد "هاجيا صوفيا".

يضم المسجد به أربعة مآذن نحيفة تقف في وسط سماء فصل الربيع وتعلن بشجاعة عن قدرة الله وجماله. سرنا بعد ذلك في الفناء المكسو بالمرمر وأشار "فرديناند" إلى الركن الذي ستوضع فيه باقة زهور تتناغم مع فن العمارة الرائع.

وفي طريق العودة من المسجد حدث التالي : نظر **"فرديناند"** بفزع عبر زجاج السيارة إلى الطريق. كانت تمر أمام سيارتنا قطة سوداء. أطلق **"فرديناند"** صرخة لا توصف من حلقة جعلت **"بوريس"** يحاول الإمساك بحلق أبيه.

أدرك السائق الأمر فأمسك بزراع الفرامل وأوقف السيارة ثم غادرها وأمسك بالقطة السوداء ، وبضربة واحدة من قبضته قسم ظهرها ثم ألقى بجثتها على سلم السيارة. أما

"**فرديناند**" فقد شحب وجهه وصار لونه مثل لون المرمر في مسجد السلطان سليم.

كان الأمور تبدو طبيعية. أمر "**فرديناند**" بأن يرسل **شكري باشا** المهزوم في سيارة خاصة إلى صوفيا. وفي المحطة الرئيسية استقبله أمام جموع المسافرين قائلا: " مرحبا بصاحب السمو ، إن العالم يعجب بالمنتصرين والمهزومين. كما أن بلغاريا تكن احتراما كبير لبطل درينوبول العظيم. وأحب أن أعرب لسموكم عن إعجابي وتعاطفي الشديدين معكم."

أمر أيضا بأن ينزل الجنرال في أفخم فندق. وتصدرت الصحف عناوين عن سماحة القيصر "**فرديناند**" ، سيد البلقان.

ربما كانت هذه القطة السوداء التي تعترض طريق

الدبلوماسيين ورؤساء الوزراء والجنرالات نبوءة بالسلام. عندما ينطلق البشر في طريق تحقيق رغباتهم غير عابئين بالآخرين حتما سيصطدمون بهم. إن مصائر الأمم تتحرك مثل كرات البلياردوا. ظهرت على وجه "**طوني**" آثار تلميحات وتهديدات من أول زيارة له في مقهى "مقدونيا". وصار شعوره بالتفوق يتزايد حدة. أما الصحفيون الذين يدعون بأنهم يعبرون عن نبض الشارع فكانوا يحملون يوميا التقارير حول خيانتهم المستمرة لملكهم وعن القياصرة والجنرالات ، الجميع يخونونا. أنت تهدرون

الـدماء فـي جبهـات القتـال وهـم يخونـوكم فـي الصالونات أثناء مباحثات السلام.

عـاود "**فردينانـد**" الخـوف مـن جديـد وسـيطر عليه تماما ، كان يشعر بالعجز والوحدة ، وراح عبثـا يهز عمامتـه "الأوروبوروس" ، فلم ينفعـه حتى ذلك الثعبان الذي يلف رأسه. بل أظهر هو الآخـر انعـدام الثقـة . وفـي مـارس قـام أحـد المهووسين بقتل "**يوراي**" ملك اليونـان الجديد. جاء مقتل الملك بعد عدة أشهر من أحداث مدينـة "تيسالونيكا"! راحت الجرائد البلغارية تكتب بـأن كل من "فردينانـد" و "دانيـف" سيتم قتلهم مـا لـم يرفعـا الظلـم عـن بلغاريـا ويفصـلا الجيش عـن اسـطنبول ويرسـلاه إلـى "مقدونيا التـي احتلتهـا الصرب واليونـان ، وإلا فإن الأخـوة فـي مقدونيا سيعانون من جديد وستلعب تلك القوى العظمـي الملعونـة الحقيرة مـن جديـد بـرؤوس البلغـاريين كما يلعبون بكرات البلياردو.

لم يرض أحد بالسلام الذي تم إقراره في لندن ، لا الأتـراك المهزومين و لا حتـى المنتصـرون الهـائجون. وفـي غمـرة سـعادة اللحظـات الأولـى بقيت كثيـر مـن الكلمـات والعبـارات الـواردة فـي اتفاقيـات الشـراكة والأحـلاف السـرية ناقصـة ومبهمة. أما النـاس في الشارع فكـانوا يحتفلـون ، فقد حرروا بلـدانهم عـن تركيـا وفـي الوقـت نفسـه هزموا هؤلاء الآخرين الذين يتكلمـون بلغـة غيـر لغـتهم. بـدأ الجنـود فـي فـرض النظـام علـى طـريقتهم الخاصـة. سـادت رغبـة البشـر فـي

إصدار الأوامر وتعظيم النفس ليس فقط بين علية القوم بل أيضا بين المئات والملايين من الناس في الشوارع ، بدأ الجميع يتحرك. إن الحروب تبدأ بسهولة لكن يصعب إيقافها. إن الحرب ليست فقط أوامر ومحاذير وقرارات بل هى أيضا مسألة تتعلق بأرواح البشر. أرواح انفلتت من مساراتها باسم حقوق الأمة المشروعة والتاج والعدل التاريخي ، وباسم حقوق المسلحين والثائرين.

كم هو سهلا الآن مع بداية الصيف مغادرة البلقان والانصراف بعيدا نحو الشمال، إلى بلاد أبناء وطني السلوفاك. إن القيصر نفسه الذي يعاني الأرق يريدك أن تسافر وأن تكمل باقة العشب الجاف ، وأن تتنقل بين الأكواخ ، وأن تفرغ طاقتك في صيد منظم للحيوان. هناك يدق قلبك بنفس الشدة تماما كما لو كنت في معركة حقيقية ، لكن الدم يسيل فقط من حيوانات وطيور مجهولة وليس من أناس معروفين بأسماء محددة وبيانات في السجل المدني عن الأب والأم. إن صيد البشر معروف ومدون منذ القدم ، وغالبا ما تدرس أعداد رحلات صيد البشر هذه ضمن أحد مواد الدراسة يطلق عليها التاريخ ، ونادرا ما تتعرض للنسيان. يمكن أن يكذب كتبة الملوك والمؤرخون وكثيرا ما فعلوا ذلك ومازالوا يفعلون ، مثلهم مثل الصحفيون وخبراء الإعلام. إن الباحثون عن مصائر البشر لا يكلوا ، فهم معروفون بصلابة الرأي،

ورثوها عن الحيوانات التي لا تتعب بحثا عن القتلة والمقتولين. يجدون أثناء ذلك سجلات مجهولة ومستندات وبيانات بغض النظر عن نوع حاملها ، بدأ من ألواح الصلصال وانتهاء بالموجات الكهربائية. وهكذا يقدمون هذه الأخبار عن التصرفات الغربية للجنس البشري ، عن أجدادهم ومعاصريهم وحتى عن الجرائم المحتملة في المستقبل ، يقدمونها بصورة مختلفة لأناس هادئين راضين ، يذهبون إلى العمل يوميا ويتناولون طعامهم ثلاث مرات في اليوم. وفي النهاية وربما بعد مرور مئات السنوات ستلمع أسماء هؤلاء القتلة تماما كأسماء من قتلوهم.

لن نتجاوز الحقيقة عندما نقول أن صناع الأحداث في صيف عام ١٩١٣ في هذا الركن من أركان العالم لم يستطيعوا فهم العلاقة بين سجل المواليد وسجل الوفيات في ذلك العام. لم يفهموا أن للسجلات أهمية خارج إطار الزمن ويمكن أن تعد دليل في المنازعات القضائية التي يتم حلها في مستويات أعلى ، مثل القضاء العالي في صوفيا أو فيينا أو "سان بيتربورج" على سبيل المثال. إن فكرة مثول السياسي أمام القضاء كانت في مطلع القرن العشرين مجرد فكرة من نسيج خيال الشعراء المجانين أو الأدباء أو الفوضويين.

كذلك لا يمكن أن نؤكد أن الوحيدين العادلين الأبرياء في قصتنا هذه هم فقط الأشخاص

الهامشيون ، هؤلاء الذين اعتذر لهم الفن والأدب مقدما وهم الأفراد العاديون ، الفقراء خلف الكواليس ، البوابون ، الطباخون ، خدمة الغرف وموظفون الخدمة ، قائدوا السيارات وسائقو عربات الحنطور وعساكر الخدمة وضباط الصف وأحيانا حتى العسكريون دون الضباط ، والأمناء والخدم في القصور والضباط المعاونون وصغار العاملون كالمغنيون والمهرجون والظرفاء (وبالطبع أيضا من هم على شاكلتهم من الجنس الآخر كالزوجات والطابخات وخادمات الغرف والنساء المسكينة المستغلة التي لا حول لها ولا قوة) وفي النهاية (أترون كيف بدأت دائرة الأبرياء تكتمل) الشعراء الذين لا يلومون إلا أنفسهم والفنانون والممثلون والرسامون والتشكيليون والمغنون ومؤلفو الموسيقى. فهؤلاء لا دخل لهم فيما يحدث . ما هم إلا مجرد هدف يستغلونه أصحاب السلطة في هذا العالم. غير أننا لا يمكن أن نؤكد أنهم أبرياء ، فهذا ليس من الإنصاف.

وبناء على الأخبار الموثقة التي تقول أن الحلفاء (الصرب واليونانيون) قد اتحدوا من أجل تقسيم مقدونيا المحررة وأن جيوشهما لن تغادرها مهما حدث فقد أصدر فرديناند في ليلة ٢٩ يونيو (يا لها من ليلة ساخنة) أمرا للقائد الأعلى الجنرال "سافوفوف" بالهجوم على

القوات الصربية واليونانية في مقدونيا ، أصدر القرار بدون علم الحكومة البلغارية نفسها.

دعنا الآن نطرح بعض الأسئلة الإفتراضية. من أوصل هذا الأمر إلى القائد الأعلى؟ (يا إلهي ، ألم يكن الرسول بالمناسبة هو صديقنا العزيز **"أنتونين"** الابن؟) هل كان لدي "سافوف" من هو أدني مرتبة ليرسل إليه الأمر؟ من منهم لم يستجب للأمر؟ من منهم لم يشعل جهاز التلغراف؟ من منهم لم يدر محرك السيارة ، من منهم لم يمتطي حصانه أو يركب دراجته؟ مَن مِن جنود الصف لم يجهز بندقيته الآلية؟ مَن مِن الجنود لم يحمل حربته المشحمة؟ أين وفي أية منطقة لم يلتزموا بأمر القيصر؟ في أية بحار من بحار التراخي غرق أو سقط في قاع مظلم كسفينة "تيتانك"؟

استمرت حرب البلقان الثانية ما يقرب من ستة أسابيع. انهزمت بلغاريا التي كانت تقف بمفردها أمام الحليف القديم (أمر طبيعي) وخسرت كل شيئ. وفضلا عن ذلك انضمت تركيا – تخيلوا- إلى من تضمنهم العقاب كغزاة. وفي منتصف شهر يوليو الحارق قام الأتراك بغزو "درينوبول" ولنا أن نتخيل أن **"فرديناند"** قد أصيب بالغيبوبة. فقد كان السلام في "بوخارست" (سلام حمامات الدماء) صعبا. قدم رئيس وزراء "بروسيا" استقالته.

وجاءت عودة **"فرديناند"** إلى صوفيا على حصانه في مقدمة جيشه المهزوم في أرض

كالحـــة ومـــا تبقـــي مـــن جنـــوده يلفهـــم التـــراب وأحصـــنة هزيلـــة تجـــر مـــا تبقـــى مـــن مـــدافع ، وجنرالات يسيرون جنبا إلى جنب مع العساكر. كانت هذه هى نسخة مكررة لكن سيئة "لدخول" القيصر قبل خمسة أعوام.كانت الزهور تتساقط هباء في الشوارع المتربة. احتفال العودة. علام يشكر البلغاريون ربهم في كاتدرائية القديس "**أليكسندر نيفسكيهو**" الجديدة؟ على أنهم لم يقدروا على الأتراك؟ على ١٤. ألف قتيل من الجنود البلغاريين خلال بضعة أسابيع؟ على خزينة الدولة الفارغة؟

نحـــن نفســـر الأمـــر بطريقتنـــا: إنهـــا القطـــة السوداء التي تقف وراء كل هذا.